المفاخرات [١]

المفاخرات الباهرة

بين عرائس متنزّهات القاهرة

دراسة وتحقيق وتعليق

د. محمد الششتاوى

دار الآفاق العربية

مقدمة

هذه دراسة لأربع مفاخرات أدبية من العصر المملوكي، ذلك العصر الزاخر بالأحداث السياسية والاجتماعية والاقتصادية الجليلة، إذ كانت دولة المماليك في مصر والشام والحجاز إحدى دول العالم العظمى أنذاك.

وترجع أهمية هذه المفاخرات إلى كونها تعطينا صورة واضحة جلية عن الحياة الاجتماعية فى العصر المملوكى التى قلما أمدتنا كتب التاريخ بمثلها حيث كان تركيزها على الجانب السياسى.

كما أنها أمدتنا بمعلومات قيمة عن متنزهات للقاهرة وبعض معالمها الهامة تفيد فى دراسة التخطيط العمرانى والاجتماعى القاهرة، ومثال لذلك المفاخرة بين قناطر الوز والزاوية الحمرا التى عرفتنا لأول مرة على بركة الخازندار التى لم يتطرق إليها أحد بالذكر من قبل.

كذلك فإن هذه المفاخرات تمثل لونا أدبيا انتشر فى العصر المملوكى اتسم بالطابع الشعبى العامى؛ فبالرغم من وجود بعض أدب مملوكى ثمين ذى قيمة فنية وموضوعية عالية إلا انه لم يلق بعد دراسة كافية؛ ولكننا نجد أن أدباء ذلك العصر اتجهوا فى أغلب أعمالهم إلى الشعب عندما لم يجدوا تشجيعا ماديًا ومعنويا كافيًا من الحكام، فكتبوا باللغة العامية أو الفصحى القريبة من العامية أو مزيج منهما، فردد الناس أشعارهم وأزجالهم ونثرهم بكل سهولة ويسر، وإننى عندما بحثت فى أدب تلك

الفترة وجدت الأدباء يؤرخون تأريخًا متصلا للعصر المملوكى من خلال أعمالهم الأدبية يسهل لنا دراسة تاريخ وحضارة مصر آنذاك.

ونقول عن المفاخرات إنها قرينة المناظرات وقد بدأت المناظرة أولا كعلم يبحث فى الشئون الفقهية والدينية والعلمية، وكان لهذا العلم أصوله وآدابه ومنهجه العلمى، وكان الغرض منه الوصول إلى الحق والصواب.

ثم سرعان ما انتقلت المناظرة إلى نواحى أدبية بحتة حولتها إلى مفاخرة ساخرة. ولكى تحقق المناظرة غرضها كان لابد لها من ثلاثة شروط، أولها أن يجمع بين خصمين متضادين أو متباينين فى صفاتهما بحيث تظهر خواصها بالمقابلة كالصيف والشتاء، والربيع والخريف والماء والهواء، والشرط الثانى أن يأتى كل من الخصمين فى نصرته لنفسه وتفنيد مزاعم منافسه بأدلة من شأنها أن ترفع قدره وتحط من مقام الخصم، والشرط الثالث أن تصاغ المعانى صوغا حسنا وترتب على سياق محكم ليجذب السامع وتنمى فيه الرغبة فى حل المشكل.

وهذه المجموعة من المفاخرات اخترت لها عنوان «المفاخرات الباهرة بين عرائس متنزهات القاهرة».

وهى تتناول أربع مفاخرات: الأولى بين بركة الرطلى والجسر، والثانية بين الجسر والجزيرة الوسطى، والثالثة بين قناطر الوز والزاوية الحمراء والرابعة بين مصر القديمة وجزيرة الروضة.

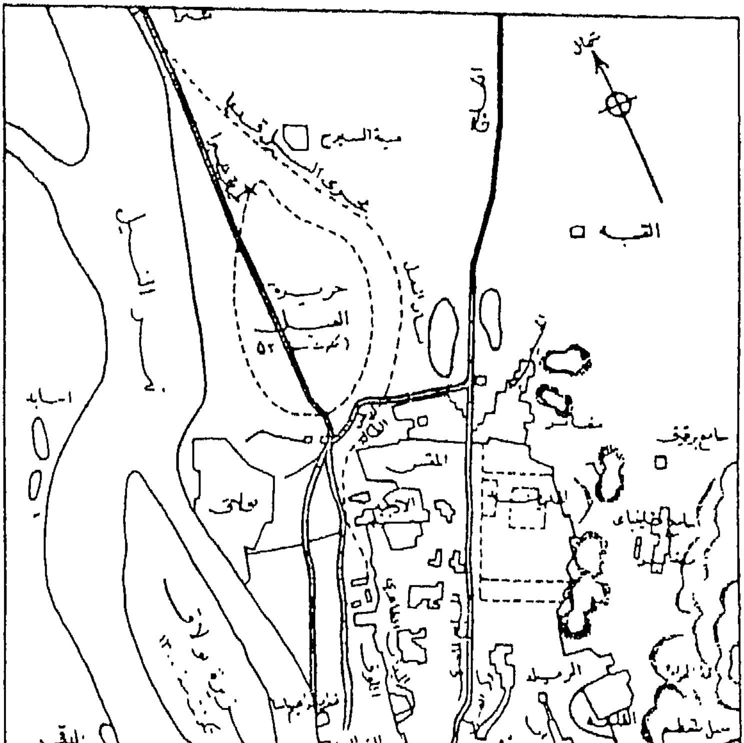
وهى تنشر وتحقق لأول مرة؛ وسأواليها بمجموعات أخرى فى مجالات شتى إن شاء الله عسى أن تعطينا صورة واضحة للون أدبى هو أدب المفاخرات والمناظرات الذى لم يكتب وينشر عنه إلا القليل.

والله ولى التوفيق

محمد الششتاوى

المفاخرة الأولى

مفاخرة بركة الرطلي والجسر

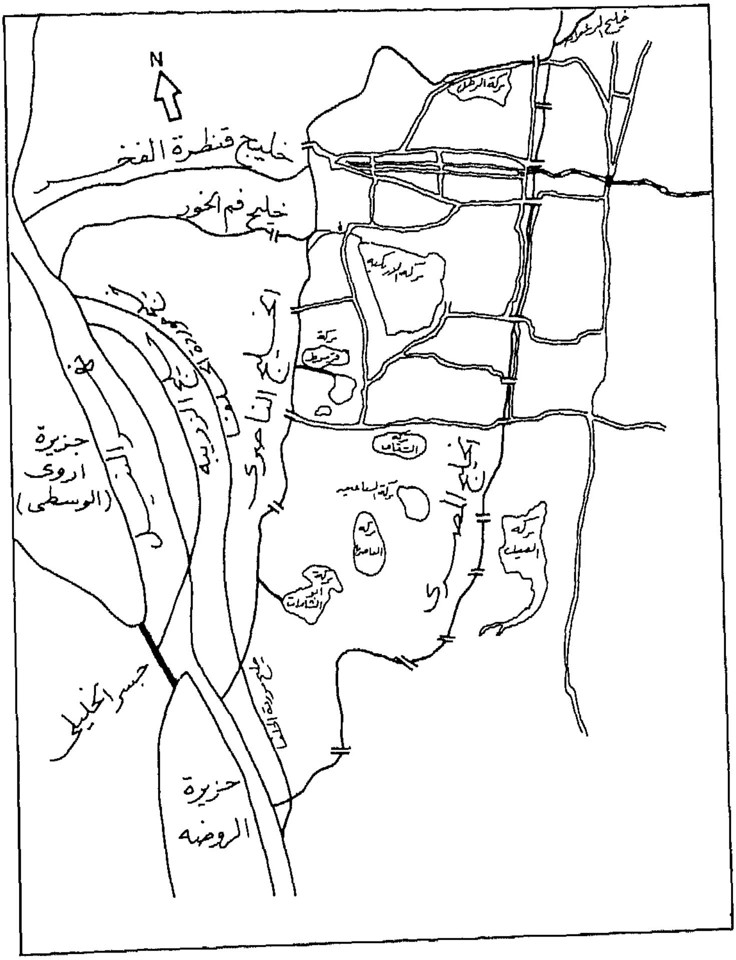


(شكل ١) اتساع مدينة القاهرة فى العصر المملوكى

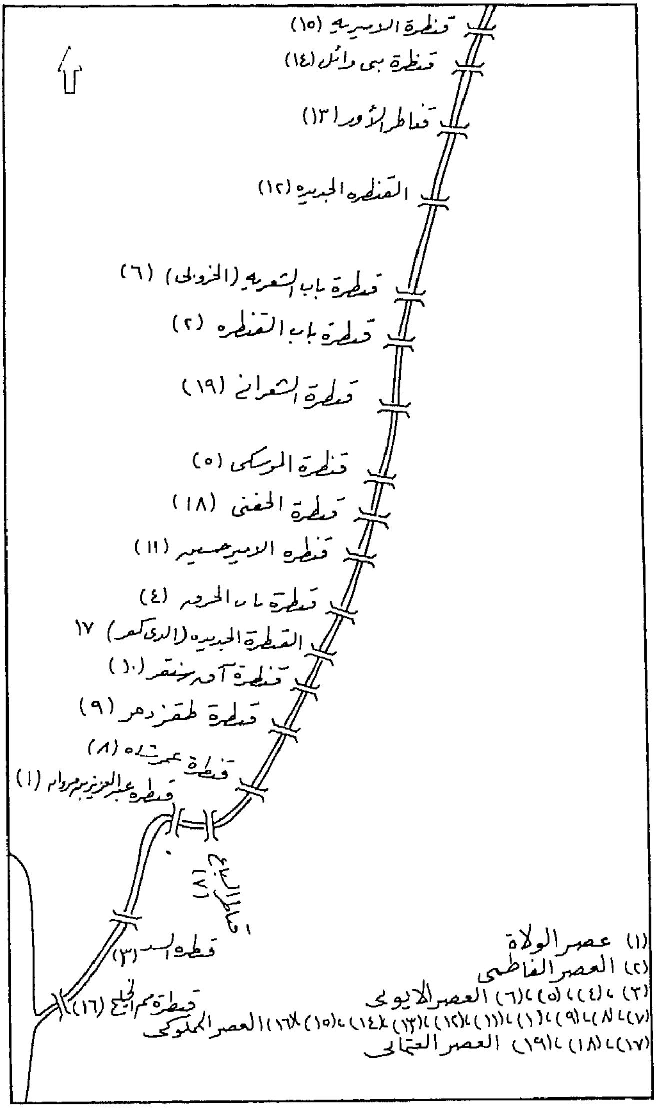
عن : عبد الرحمن زكى، القاهرة تاريخها وآثارها، ص ١٥٥



(شكل ٢) برك القاهرة فى العصرين المملوكى والعثمانى



(شكل ٣) خلجان القاهرة فى العصر المملوكى



(شكل ٤) ترتيب القناطر على الخليج المصرى والعصور التى أنشئت فيها

أولا : دراسة تاريخية لبركة الرطلى والجسر عليها

فى عام ٧٢٥هـ / ١٣٢٥م أمر السلطان الناصر محمد بن قلاوون بحفر خليج من النيل وتوصيله بالخليج الكبير ومساره غرب وشمال القاهرة وفمه من موضع غائر على النيل فى موردة البلاط ومساره يمر بموضع الميدان الظاهرى الذى كان الناصر محمد قد حوله إلى بستان ثم يمر بعد ذلك إلى خط بركة قرموط ثم ظاهر باب البحر ويمر من هناك على أرض الطبالة فيصب فى الخليج الكبير (١).

وبدأ العمل فى أول شهر جمادى الأولى سنة ٧٢٥هـ وأنجز فى مدة شهرين فقط فى آخر جمادى الآخرة سنة ٧٢٥هـ، وجرى الماء عند زيادة النيل، وتم تسمية هذا الخليج باسم الخليج الناصرى نسبة للناصر محمد.

وبتحقيقنا لمسار هذا الخليج نجد أن فمه من اليل فى نقطة التقاء شارع عائشة التيمورية (الوالده باشا سابقا) بشارع كورنيش النيل بجاردن سيتى، ومسار الخليج شارع القصر العينى فشارع يوسف الجندى (الحوياتى سابقا) فشارع طلعت حرب (شارع سليمان باشا) فشارع عرابى فشارع رمسيس حتى يصل إلى المستشفى القبطى ثم ينعطف من

---

(١) المقريزى، الخطط جـ ٢ ص ١٤٥، السلوك جـ ٢ ص ٢٦١.

هناك شرقا حتى يصل إلى شارع خليج الطوابة فشارع الظاهر حتى ينتهى إلى شارع الخليج المصرى (شارع بورسعيد حاليا) الذى حل محل الخليج الكبير حيث كان التقاء الخليجين (١).

وهذا المسار هو المسار المعدل للخليج الناصرى عما كان مقررا أولا، حيث كان من المفروض أن يستمر مساره فى شارع رمسيس حتى يتقابل مع الخليج الكبير فى النقطة التى تتمثل الآن باسفل كوبرى غمره، وهذا التعديل حدث لأن الأمير بكتمر الحاجب التمس من المهندسين المشرفين على حفر الخليج الناصرى اجراء هذا التعديل فى مساره ليسير باتجاه الشرق فى محاذاة شمال بركة الرطلى التى كانت تجرى فى اقطاعه من ضمن أرض الطبالة (٢).

لذا عمر الأمير سيف الدين بكتمر الحاجب جسراً بين البركة والخليج وسمح للناس بالبناء عليه وكان ذلك الجسر من أنزه بقع وفُرُج القاهرة لأنه يشرف من ناحية على الخليج ومن الناحية الأخرى على البركة فحفل الجسر بالقصور المنيفة والمناظر الرائعة التى تجتمع الناس تحتها وتمر بحافة الخليج للنزهة، وأصبح الخليج الناصرى حسبما ذكر « المقريزى » « . . موطن افراح ومنازل لهو ومغنى صبابات وملعب أتراب ومحل تيه وقصف بما يمر فيه من المراكب وفيما عليه من الدور » (٣) وموضع الجسر الآن يمثله شارع الظاهر بالقاهرة.

---

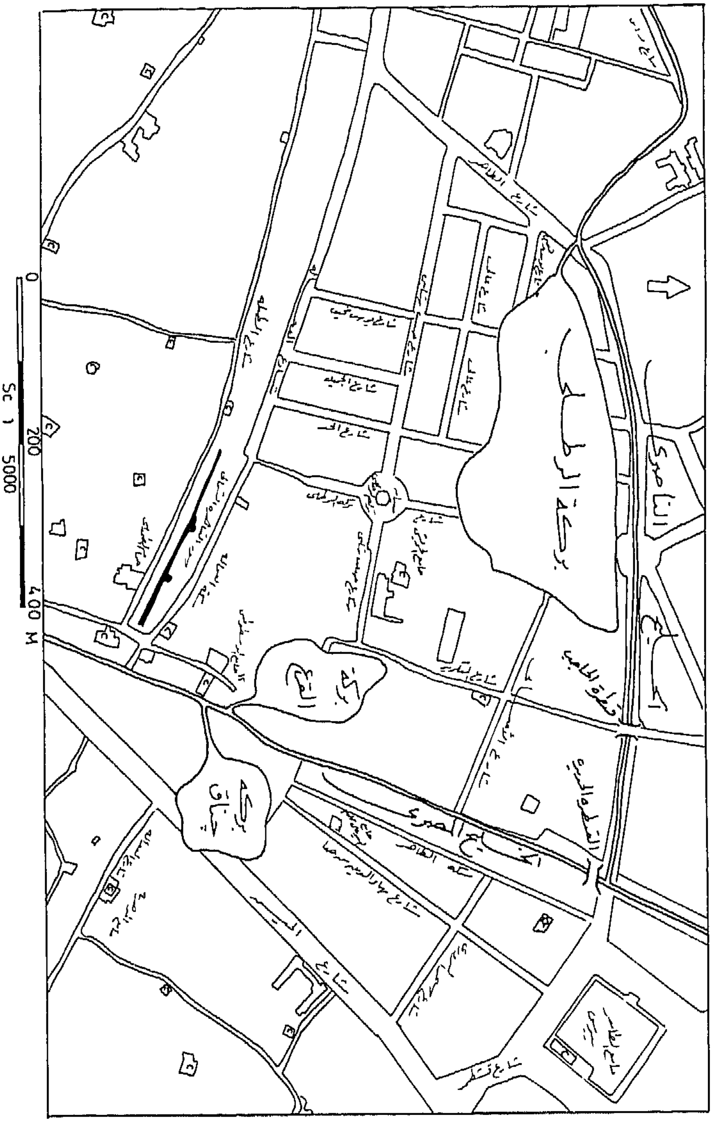
(١) عن الخليج الناصرى بالتفصيل انظر

محمد الششتاوى، متنزهات القاهرة فى العصرين المملوكى والعثمانى.

مخطوط ماجستير، كلية الآثار جامعة القاهرة، ١٩٩٤، ص ٢٩٧ - ٣٠٦.

(٢) المقريزى، الخطط جـ ٢ ص ١٦٢.

(٣) نفس المصدر ص ١٤٥.



(شكل ٥) موقع وحدود برك الرطلى والقرع وجناق بالقاهرة

أما عن بركة الرطلى فقد كانت من أحسن متنزهات مصر فى العصر المملوكى وكانت تشغل الجزء الشمالى من أرض الطبالة التى تشغلها الآن المنطقة التى تحد من الشرق بشارع الخليج المصرى ومن الشمال بشارع الظاهر فشارع وقف الخربوطلى وما فى امتداده حتى يتقابل مع شارع مهمشا ومن الغرب بشارع غمره إلى ميدان رمسيس الآن ومن الجنوب بشارع الفجالة وبسكة الفجالة، ويدخل فى نطاق أرض الطبالة الآن حى الفجالة وجزء من حى الظاهر وجزء من حى الشرابية (١).

وكان طول بركة الرطلى نحو ٣٥٠ مترا ومتوسط عرضها ١٠٠ متر ومساحتها نحو تسعة أفدنة، وقد ردمت البركة فى مدة حكم الخديوى إسماعيل أيام نظارة على باشا مبارك لديوان الاشغال وتحولت أرضها حينئذ للبناء. ويشغلها الآن المنطقة المحصورة بين شارع الظاهر شمالا وغربا وشارع غالى وما فى امتداده جنوبا وخط رأسى موازى لشارع البكرية شرقا.

وعرفت البركة أولا باسم بركة الطوابين من أجل أنه كان يعمل بها الطوب ثم عرفت بركة الحاجب بعد سنة ٧٢٥هـ نسبة إلى الأمير بكتمر الحاجب المتوفى سنة ٧٣٨هـ/١٣٣٧م الذى كان من كبار أمراء السلطان الناصر محمد بن قلاوون وكانت البركة هى وباقى أرض الطبالة تجرى فى إقطاعه (٢). أما عن تسميتها ببركة الرطلى الشائعة عليها فترجع إلى أنه كان يوجد شرق هذه البركة زاوية بها نخل كثير وفيها شخص يسمى

---

(١) عن أرض الطبالة وبركة الرطلى بالتفصيل انظر :
محمد الششتاوى، متنزهات القاهرة ص ٢٣٨ - ٢٥٠.

(٢) المقريزى ، الخطط جـ ٢ ص ١٦٢.

خليل الرطلى كان يصنع صنج الارطال التى يزن بها الباعة فسماها الناس بركة الرطلى نسبة إليه وكان ذلك زمن الناصر محمد أيضا وقد توفى الرطلى سنة ٧٤٢هـ/ ١٣٤١م ودفن في زاويته التى حولت لجامع بركة الرطلى وعملت له قبة فيه (١).

أما عن العمران حول البركة في العصر المملوكى فنقول أن ما حولها كان خاليا من البناء وإنما أرض زراعية فقط وكانت البركة تمتلأ بالماء فى فصل الصيف فقط أيام الفيضان وفى الشتاء يجف منها الماء وتزرع بالقرط (البرسيم) وغيره، فلما حفر الخليج الناصرى شمالها صارت البركة تملأ كل عام منه فى موسم الفيضان بعد أن كانت تملأ من الخليج الكبير (المصرى) من عند طرفها الغربى وعمل بكتمر الجسر وعُمِّر بالدور التى تشرف من ناحية على البركة ومن الناحية الأخرى على الخليج وتتابع الناس فى البناء حول البركة حتى لم يبق حولها مكان خال (٢).

واستمرت البركة عامرة حتى تعرضت كغيرها من انحاء القاهرة وظواهرها للمحن والأحداث الجسيمة التى بدأت فى سنة ٨٠٦هـ/١٤٠٣م حين قصر النيل ولم يف وشرقت البلاد ووقع غلاء عظيم فخربت بقاع القاهرة وخصوصا ظواهرها، إلا أن هذه الأزمات لم تدم طويلا وعاد التعمير للبركة كما كان واستمر بناء الدور والقصور والمناظر ذات المقاعد والطاقات المشرفة على البركة.

ولبركة الرطلى جامع عامر بذكر الله تعالى إلى الآن يقع شرقى البركة فى موضع زاوية الرطلى وقد أنشىء لما عمرت البركة وكان مجاوراً لبيت

---

(١) المقريزى، الخطط جـ ٢ ص ١٦٢، ٣٢٦. ابن اياس، بدائع الزهور جـ ١ ق ١ ص ٤٥٦.

(٢) المقريزى، الخطط جـ ٢ ص ١٦٢، ١٦٦.

الوزارة وحظى من الوزراء بعناية فائقة، ولما مات الشيخ يوسف الحريشى أحد اتباع الطريقة العنانية سنة ٩٢٤هـ/١٥١٨م دفن بالجامع فعرف باسمه من يومئذ (١).

أما عن الدور والقصور حول البركة فقد كانت تنتمى لطبقة متميزة فى المجتمع المصرى فى العصر المملوكى حيث سكن حولها أصحاب سلطة ونفوذ وقلما سكنها أحد من العامة، فعلى شاطىء البركة بيت الوزارة يسكنه من يلى الوزارة فى العصر المملوكى وكان يجاور الجامع (٢) كذلك بنى أصحاب الوظائف الهامة قصورا عظيمة حول البركة من مباشرى الدولة من الوزراء والاستادارات والأمراء والكتاب والقضاة والمحتسبون.

وكانت توجد فى العصر المملوكى عائلات بعينها تتوارث الوظائف الهامة فى الدولة متخذة من بركة الرطلى مقراً لها مثل عائلة ابن الجيعان الذين استمروا أكثر من مائة وعشرين سنة يتوارثون وظيفتى ديوان الجيش والخزانة، وكانت دورهم وقصورهم بجوار جامع البركة وقاموا بإصلاحه عدة مرات (٣)، وكذلك سكن البركة عائلة ابن مزهر وقد توارثوا وظيفة كاتب السر وكانت لهم مكانة مرموقة فى العصر المملوكى (٤).

وكانت قصور وبيوت البركة شامخة البنيان حافلة بالزخارف والأثاث

---

(١) محمد الشستاوى، متنزهات القاهرة ص ٢٤٢ - ٢٤٣.

(٢) إبن إياس، بدائع الزهور جـ ٢ ص ٤١٦.

(٣) انظر : السخاوى، الضوء اللامع جـ ١١ ص ٣ - ٤ ، ابن اياس ، بدائع الزهور جـ ٣ ص ١٣٣، جـ٥ ص ٢٩٩ - ٣٠٠ ، ٤٥٦ ، ٤٨٧

(٤) إبن إياس ، بدائع الزهور جـ ٣ ص ١٨٦ ، ١٨٧ ، جـ ٤ ص ٦٧.

والمفروشات الأنيقة حتى أن أحد البردارية [١] أنشأ بيتا على بركة الرطلى غَرِمَ عليه نحو خمسين ألف دينار [٢].

وكان السلاطين ينزلون أحيانا ضيوفا على الوزراء والقضاة فى بركة الرطلى ويقضون أوقاتا هناك كالأعياد والمهرجانات العامة، منهم السلطان المؤيد شيخ الذى كان ينزل فى بيت صلاح الدين خليل بن الكويز ناظر ديوان المفرد فى سلطنته [٣] وكذلك السلطان الغورى الذى كان ينزل فى ضيافة المحتسب الزينى بركات بن موسى [٤].

ومما يدل على نفوذ وثراء من كان يقطن حول البركة فى العصر المملوكى أنه فى جمادى الأولى سنة ٩١٧هـ/ ١٥١١م صدر أمر للسلطان الغورى بمنع جماعة من مباشريه من السكن بالبركة بحجة تضييع الأموال هناك، فلم يسكن بها أحد من المباشرين ولا القضاة فى هذه السنة وأُهملت البركة آنذاك. وقلَّت فيها البهجة ولم يسكن بيوت الجسر إلا القليل [٥] ويلاحظ أن السكن بالبركة كان مرتبطا بشكل كبير بأيام النيل وامتلاء البركة بالماء حيث اعتبرت مصيفاً.

---

(١) البردارية مفردها بردادار وهو الذى يكون فى خدمة مباشرى الديوان فى الحملة، متحدثا على أعوانه والمتصرفين به. القلقشندى، صبح الأعشى جـ ٥ ص ٤٦٨.

(٢) اسم هذا البردار هو الحاج سعد، وقد صادره السلطان المؤيد شيخ فى خمسين ألف دينار فى شوال سنة ٨١٧هـ/ ١٤١٤م، وقد أطلق على الدرب الذى فيه هذا البيت اسم درب الحاج سعد حسبما ورد فى وثيقة الأمير عبد الغنى الفخرى.

انظر : العينى، عقد الجمان ص ٢٠٨، ابن إياس، بدائع الزهور جـ ٢ ص ١٧.

(٣) المقريزى، السلوك جـ ٤ ص ٥٢٨، ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة جـ ١٤ ص ٩٤.

(٤) ابن إياس، بدائع الزهور جـ ٤ ص ٢٧٤

(٥) نفسه ص ٢٣٤.

ومن أمثلة الشخصيات الهامة التى ملكت الدور والأبنية على البركة الأمير عبد الغنى الفخرى الأستادار المتوفى سنة ٨٢١هـ / ١٤١٨م وهو صاحب المدرسة المعروفة باسم جامع البنات بشارع الخليج المصرى (بورسعيد) (اثر رقم ١٨٤) حيث كان له بناءان متقابلان يشرفان من ناحية على بركة الرطلى ومن الناحية الأخرى على الجسر، كما كان له بناءان آخران على البركة بدرب الحاج سعد (١).

ومن كبار القضاة القاطنين بالبركة القاضى عبد الباسط ناظر الجيوش وهو صاحب المدرسة الباقية بالخرنفش (أثر رقم ٦٠) وكان ينزل عنده القضاة ويقضون أمسيات بداره خاصة أيام النيل (٢).

وكان شيخ الإسلام الحافظ بن حجر العسقلانى يملك داراً على بركة الرطلى أقام فيها رمنا (٣) وأيضا كان للقاضى موفق الدين ناظر جيش الشام المتوفى سنة ٨٧٧هـ/١٤٧٢م بيت بدرب الطباخ ىركة الرطلى كان ملتقى لاجتماع القضاة (٤).

ومثال للبيوت الحافلة التى كانت بالبركة ما ذكره « ابن إياس » فى ترجمته للسلطان خشقدم (٨٦٥ ـ ٨٧٢هـ / ١٤٦١ ـ ١٤٦٧م) إن من عيوبه كثرة المصادرة إذ أنه قد صادر الصاحب علاء الدين بن الاهناسى حتى أنه فك رخام بيته ببركة الرطلى ونقله إلى تربته بالصحراء (٥).

---

(١) وثيقة الأمير عبد العنى الفحرى رقم ٧٢ المحفوظة بدار الوثائق القومية.

(٢) العيبى، عقد الحمان (نشر الرهراء) ص ٣٠٣.

(٣) السخاوى، التبر المسبوك ص ٢١١، ابن أبى السرور البكرى، الرهة الرهية (محطوط) ورقة ٧٥.

(٤) ابن الصيرفى، ابناء الهصر ص ١٥٩، السحاوى، الصوء اللامع حـ ٥ ص ٧.

(٥) بدائع الزهور جـ ٢ ص ٤٥٧.

ومن كبار رجال الدولة المملوكية المقيمين ببركة الرطلى على بن قمتى رأس نوبة الدوادار الكبير (١).

وقد ذكر «ابن إياس» أن بعض ضيوف السلطان قايتباى كانوا ينزلون ببيوت البركة مثل أمير مكة الذى كان ينزل فى بيت أم ناظر الخاص يوسف على بركة الرطلى وخصوصا أيام امتلاء البركة بالماء (٢).

ومن الشخصيات التاريخية التى شهدت داره على بركة الرطلى أياما سجل المؤرخون أحداثها لأهميتها المحتسب الزينى بركات بن موسى (٣).

---

(١) ابن الصيرفى، انباء الهصر ص ٤٣٨.

(٢) بدائع الزهور جـ ٣ ص ٩٣.

(٣) نفسه جـ ٤ ص ٢٧٤.

التنزه بالجسر والبركة فى العصر المملوكى

بالرغم من آن سكان بركة الرطلى والجسر يمثلون طبقة متميزة فى مجتمع العصر المملوكى الإ أن العامة وبقية طوائف الشعب كانوا يشاركونهم فى التنزه والتفرج والاحتفال بالبركة، وكان الاحتفال هناك على مدار العام ففى الصيف والخريف يكون فيضان النيل فتمتلئ البركة بالماء وتدخلها مراكب النزهة، وفى فصل الشتاء والربيع تزدهى البركة بمنظر أخاذ من نمو الأزهار والمزروعات بها وخصوصا مسظر القرط (البرسيم) والكتان مما هيج أحاسيس الشعراء فأفاضوا بالكثير من الأشعار فى وصف البركة وما حولها.

وكان الناس يأتون البركة أيام أجازاتهم وخصوصا أيام الجمع والآحاد حيث يجتمع هناك عالم لا يحصى وتدور بهم مراكب النزهة المسماه بالشخاتير تدخل البركة عن طريق الخليج الناصرى والخليج الكبير فتدور بارجائها، وتموج البركة بالنشاط والحيوية بما عليها من قوارب وما بها من أسواق عائمة بجميع أنواع المأكوت والمشروبات (١)، وقد تعددت مظاهر

---

(١) المقريزى، الخطط جـ ٢ ص ١٦٢، ابن تغرى بردى النجوم الزاهرة جـ ١١ ص ١٧١.

الاحتفال بالبركة من السياحة بها واقامة مخيمات بربوعها وسط حلقات تضم اعلام الغناء والموسيقى وأرباب الألعاب وخيال الظل، وتقام احراقات نمط هائلة، وكانت المراكب والبيوت حول البركة توقد ليلا بالقناديل فتحيل الليل نهارا.

وقد توفرت للمتنزهين بالبركة حرية كبيرة لم تتوفر لهم داخل المدينة ففشت بينهم الأمراض الاجتماعية وساعد جو الثراء حولهم فى ذلك فأقيمت الليالى ذات الترف الشديد وحفلت بمجالس شراب الخمور وتعاطى المواد المخدرة التى كانت تزرع بالبركة وحولها بأرض الطبالة، وشاركت النساء الرجال واختلطن بهم وهن متبرجات ويحدثنا «المقريزى» إنه أدرك التنزه بهذه البركة منذ سنة ٧٧٠هـ حيث كانت بمنأى عن الأحداث التى تدمر البلاد والناس يستمتعون بأيامهم هنالك غاية الاستمتاع وذكر «المقريزى» أيضا أن البركة تأثرت بما حدث بمصر من المحن التى بدأت سنة ٨٠٦هـ (١) الإ إننا نرى أن هذا التأثير كان مؤقتا وسرعان ما عادت البركة كما كانت وأعمر من قبل.

وقد حرص بعض السلاطين على الخروج والتفرج بالبركة ولا سيما المؤيد شيخ أكثر السلاطين خروجا وكان يستضيفه هناك صلاح الدين بن الكويز ناظر ديوان المفرد فى بيته على البركة ويمد له الاسمطة الحافلة (٢).

وكان السلطان قايتباى ينزل ضيوفه هناك وعلى سبيل المثال نزل قاضى مكة وأخاه وابن أميرها ببيت أم ناظر الخاص يوسف على البركة ورتب

---

(١) الخطط جـ ٢ ص ١٦٢

(٢) المقريزى، السلوك جـ ٤ ص ٥٢٨، ابن تغرى بردى، النجوم جـ ١٤ ص ٩٤.

لهم ما يكفيهم من اسمطة وغير ذلك فرأوا فى ذلك البيت بهجة أيام النيل حتى سافروا (١).

ومثال للأيام الحافلة التى شهدتها بركة الرطلى ما حدث فى شعبان سنة ٨٨٦هـ بمناسبة ختان أولاد القاضى كاتب السر ابن مزهر ببركة الرطلى وكان له مهم (احتفال) حافل جداً وحضر عنده جماعة من الأمراء المقدمين والعشرات وحضر عنده جمجمة بن عثمان (٢) وبات عنده وقد وصف «ابن إياس» ذلك الاحتفال وصفا دقيقا إذ كان شاهد عيان للأحداث فى نهاية الدولة المملوكية وبداية الدولة العثمانية بمصر فقال:

« وكان النيل فى أواخره فأمر كاتب السر سكان البركة بأن يوقدوا فى البيوت وقدة حافلة وشرع يرسل لكل بيت فى البركة عشرة أرطال زيت وطبلية فيها أكل فاخر من طعام ذلك المهم فاحتفلوا فى الوقدة وعلقوا فى الطيقان الأحمال والتنانير والأمشاط معمرة بالقناديل حتى كانت البركة تضىء بالنور ويكاد الإنسان أن يدخل الخيط فى خرم الأبرة من عظم ضوء النور، وأحرق حراقة نفط حافلة لم يسمع بمثلها حتى خرجت البنت فى خدرها بسبب الفرجة على ذلك وبلغ كرى كل مركب أربعة اشرفية(٣) واستمرت هذه الوقدة وحراقة النفط ثلاث ليال متوالية حتى عد ذلك من النوادر التى لم يقع مثلها واجتمع بالبركة نحو أربعمائة مركب

---

(١) اس إياس، بدائع الرهور جـ ٣ ص ٩٣.

(٢) جمحمة هو أحو السلطان العثمانى بيازيد (٩١٨.٨٨٦ هـ / ١٥١٢.١٤٨١م) حضر إلى مصر ومعه والدته وأولاده حوفا على نفسه من أحيه السلطان أن يقتله وذلك أن البلاط العثمانى اتبع عادة شيعة وهى أن من يتسلطن كان يبادر بقتل أحوته حتى لا يزاحموه على العرش.

(٣) كرى = أحره، أشرفية أى دنانير أشرفية نسبة للسلطان الأشرف برسباى وهى من أجود الدنانير المملوكية وأعلاها سعرا وقيمة.

موسوقة بالخلايق، وصار ابن رحاب المغنى عمال فى كل ليلة وسائر مغانى البلد من رجال ونساء وانطلقت ألسن النساء بالزغاريت وأنفق فى تلك الليالى من الأموال مالا يحصى حتى قيل ابتاع من عصفور الجّبان على المتفرجين بنحو مائة وعشرين دينارا حبن مقلى وكذلك ابن الزيبق الحلوانى ابتاع منه حلوى بنحو ذلك، وقد خرجت الناس فى القصف والفرجة عن الحد وقد رسم السلطان للقاضى كاتب السر أن لا يبقى ممكنا فى هذا المهم لأجل الجمجمة ابن عثمان كونه كان حاضرا فى هذا المهم وفى هذه الواقعة يقول بعض الشعراء:

طابت على بركة الرطلى ليلتنا	حتى تباهت على الحلجان والبرك
حفت بضوء مصابيح زهت وغدت	تضىء فى حندس الديجور والحلك
فكان لما تناهى حسن وقدتها	تخفى شموس الضحى فى دارة الفلك

وقال الشمس القادرى:

تاه الانام بجنح الليل فاتخذوا	لهم دليلا لذا الظلماء من اللهب
حتى كأن جلاليب الدجى رغبت	عن لونها وكأن الشمس لم تغب (١)

ومن الأيام الحافلة التى شهدتها البركة أيام شهر ربيع الآخر سنة ٨٩٩هـ حينما عين السلطان قايتباى الأمير ماماى بن خداد الدوادار الثانى بان يتوجه رسولاً إلى سلطان الدولة العثمانية « فشرع ماماى فى عمل

---

(١) اس إياس، بدائع الرهور حـ ٣ ص ١٨٦ - ١٨٧.

ونلاحظ هنا دقة اس إياس فى وصف تلك الأحداث الاجتماعية حتى إنه أمدنا ببعض أسماء الناعة التى قلما يأتى ذكرلهم فى التاريخ الذى أرخ للملوك والسلاطين غالبا

ونلاحظ أن القادرى اقتبس البيت الثانى من قصيدة أبى تمام فى فتح عمورية.

يرق(١) حافل وصنع له ردكا ببركة الرطلى فى زمن الشتاء وصار يوقد فى كل ليلة هناك وقدة حافلة وهرعت الناس إلى هناك بسبب الفرجة وعُمِّر الجسر وسكن به الناس أياما فى قلب الشتاء حتى عُدَّ ذلك من النوادر وكان يعمل هناك فى كل ليلة خيال ظل أو مغانى عرب أو ابن رحاب المغنى أو غير ذلك من الملاهى وكانت ليالى مشهودة فى القصف والفرجة حتى خرج الناس فى ذلك عن الحد وأقاموا على ذلك نحوا من عشرين يوما ثم سافر الأمير ماماى » (٢).

أما السلطان الملك الناصر محمد بن قايتباى فكان ينادى فى سكان بركة الرطلى بأن يوقدوا بها وقدة سبع ليال متوالية « وصار ينزل فى المراكب ويطوف بالبركة هو وأولاد عمه » (٣).

وشهدت بركة الرطلى احتفالات كبيرة زمن اللطان قانصوه الغورى وخصوصا أنها تضم بيوت الوزراء والأعيان وكبار رجال الدولة ومنهم على سبيل المثال القاضى بركات بن موسى المحتسب وقد حدث فى شهر جمادى الآخرة سنة ٩١٨ هـ / ١٥١٢م أن تغير خاطر الغورى على

---

(١) يرق كلمة تركية معناها سلاح . انظر

أحمد السعيد سليمان، تأصيل ماورد فى تاريخ الجبرتى من الدخيل ص ٢١٠ .

(٢) ابن إياس، بدائع الزهور جـ ٣ ص ٢٩٩.

(٣) نفسه ص ٣٩٧.

ويذكر « ابن إياس » عن الناصر محمد بن قايتباى أنه كان أهوجا فى تصرفاته وأفعاله وكانت أيامه كلها فتن وقد ضرب « ابن إياس » مثالاً على إنه كان إذا رأى امرأة جميلة فى بيتها ببركة الرطلى يهجم عليها ويطلع لها من الطاقة ويأخذها غصبا ويضرب زوجها بالمقارع فى وسط بيته فارتابت الناس منه.

كما ذكر أيضا إنه كان يخالط الأوباش وكان به طيش ورعونة وخفة وسفه، ومن الأمور الغريبة التى كان يفعلها أنه جعل له مركبا فى البحرة التى بالقاعة التى بالقلعة وصنع فيها حلوى وفاكهة وجبن مقلى وكان ينزل بنفسه فى المركب ويبيع كما يصنع البياعون فى بركة الرطلى.

انظر : بدائع الزهور جـ ٣ ص ٣٥٦ ، ٣٩٧.

الزينى بركات لشجاره مع الوزير الجمالى يوسف، فحبسه ثمانية أيام ولكنه أفرج عنه بعدها وخلع عليه كاملية صوف بصمور (١) « ونزل من القلعة فى موكب حافل ومعه جماعة من أرباب الدولة فزينت له القاهرة ووقدت له الشموع والقناديل على الدكاكين وتخلّق الناس بالزعفران حتى زينت له بيوت بركة الرطلى بالشدود الحرير والكوامل الحرير الملون فعلقت فى الطيقان وانطلقت له النساء بالزغاريت ولاقته الطبول والزمور ومغانى النساء وكان ساكنا ببركة الرطلى فى أيام النيل وكان الزينى بركات محببا للناس فى أيام ولايته على الحسبة .. » (٢).

ومن الأيام المشهودة التى عاشتها البركة أيام شهر شعبان سنة ٩١٩هـ/ ١٥١٣م فقد صدر أمر سلطان بالزينة والاحتفال بالقاهرة لأجل عافية السلطان من مرض ألم بعينه وكان الاحتفال عظيما ببركة الرطلى لأن الزينى بركات المحتسب كان ساكنا بها فأشهر الزينى « المناداة لسكان بركة الرطلى بأن يصنعوا بها وقدة حافلة ويزينوا الطيقان لأجل عافية الملك فانطلقوا سكان بركة الرطلى بالزغاريت وعلقوا فى الطيقان الشدود الحرير الأصفر والكوامل الحرير الملون ودارت الطبول والزمور فى المراكب يهنوا أعيان الناس من سكان البركة بعافية السلطان، ثم أن سكان البركة شرعوا فى أمر الوقدة فعلقوا فى الطيقان أحمال وأمشاط فيها القناديل فاحتفلوا سكان البركة بوقدة عظيمة ثلاث جمع متوالية وصارت فى كل ليلة تدور المراكب بالمتفرجين ويقع بالبركة من القصف والفرجة مالا يحصى وصفه ولاسيما قد صار أمرا سلطانيا وكان النيل فى أواخره فخرج الناس فى

---

(١) كاملية صوف بصمور هى عباءة صوف مبطنة بفراء الصمور (حيوان السمور).

(٢) ابن إياس، بدائع الزهور جـ ٤ ص ٢٧٤ . ٢٧٥ .

ذلك عن الحد وصار يقع فى البركة كل ليلة أمور غريبة من سماع مغنى لطيفة ووقدة ونفوط تحرق وأشياء حافلة » (١).

واستمرت البركة موضع نزه واحتفالات عامة فى العصر العثمانى وإن كانت لا ترقى إلى العصر المملوكى لتراجع العمران بها واندثار عمارة الجسر آنذاك (٢).

وقد ارتبط كل من الجسر والبركة ببعض الأمراض الاجتماعية فى العصر المملوكى مثل تعاطى المخدرات والخمور والفساد الخلقى، وكان الرباط وثيقا بين البركة والمخدرات وعلى رأسها الحشيش الذى عانت منه مصر والمصريون كثيرا ولا تزال تعانى من مآسيه وتبعاته (٣).

وقد انتشرت زراعة شجرة الحشيش فى بركة الرطلى وأرض الطبالة وفشت هذه الشجرة فى عصر المماليك « وولع بها أهل الخلاعة والسخف ولوعا كبيرا وتظاهروا بها من غير احتشام » (٤) ويرجع سبب ذلك إلى سماح الدولة آنذاك بزراعته نظراً لما قد يعود عليها من ضريبة وانتشر إلى جانب الحشيش الأفيون الذى عرفه المصريون فى العصر المملوكى واستمر سائدا (٥).

وقد قيل فى زراعة بركة الرطلى والجنينة المجاورة لها بالحشيش عدةّ أشعار منها قول الشاعر:

---

(١) نفسه ص ٣٣٣ - ٣٣٤.

(٢) محمد الششتاوى، متنزهات القاهرة ص ٤٧٦ - ٤٧٧.

(٣) لمزيد من التفاصيل انظر محمد الششتاوى، متنزهات القاهرة ص ٥٢٦ - ٥٤٥.

(٤) المقريزى، الخطط جـ ٢ ص ١٢٦.

(٥) سعيد عاشور، المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك ص ٢٣٠.

بمصر لأهل اللهو والتيه بركة   تولع فيها بالحشيش أولو الفضـ

ويبلغ رطلا كل من رام أرضها   ومن أجل هذا سميت بركة الرطلى (1)

وقول الشهاب المنصورى :

كم بالجنينة من قتيل حشيشة   لا يستفيق ولا ينفخ الصـ

وهبت له الخضراء من أفعالها   آذان أطروش وعين ضرير (2)

وقوله فيها أيضا :

كم بالجنينة من أصم أبكم   ورحلاه فى قيد وعيناه فى قـ

أشبهه فى خلقه بابن آدم   محازا وفى أكل الحشيشة بالعـ

يحاول منه الناس رد جوابهم   وكيف يرّد القول من مات بالقـ

أيصغى بلا سمع أيومى بلا يد   أيرنو بلا عين أيمشى بلا رجل (3)

وارتبطت بركة الرطلى بشرب المسكرات مثلما ارتبطت بالمخدرات
وقد قال الشهاب المنصورى فى ذلك :

دعوتك فانهض مسرعا يا أخا الفضل   لنشرب أرطالا على بركة الرطـ

فقد سلّ كفّ الخصب سيف خليجه   ليضرب عنق الجدب أوهامة المحـ

وقد مدّت الأرواح أيدى غصونها   إلى النيل تستحلى لماه وتستجلى (4)

---

(1) ابن ظهيرة، الفضائل الباهرة ص ٢١ .

(2) ابن إياس، بدائع الزهور جـ ١ ق ١ ص ٦١ .

(3) ابن إياس، بدائع الزهور جـ ١ ق ١ ص ٦١

(4) نفسه ص ٦٠

وقال فى الجسر :

وبى ليلة بالجسر فيها تجاسرت يداى على شرب المدامة بالرطلى
وقد سنح الأرام فى ضوء بدرها فإن خفن من واش تسترن بالطل
فقم نجتليها من غزال مسلط بكسرة أحفان على صحة العقل (١)

(١) نفسه ص ٦١

ثانيا : تحقيق المفاخرة وتقييمها

أ ـ التحقيق :

تعرفت على هذه المفاخرة لأول مرة سنة ١٩٨٨م أثناء تحقيقي لكتاب النزهة الزهية في ذكر ولاة مصر والقاهرة المعزية لابن أبى السرور البكرى الذى ذكرها فى حديثه عن متنزهات القاهرة دون أن يذكر مؤلفها، وحتى أحقق هذه المفاخرة تحقيقا وافيا هى وغيرها من المفاخرات التى نحن بصددها بحثت فى جميع مخطوطات دار الكتب المصرية ومخطوطات معهد المخطوطات العربية بالقاهرة فلم أجد ألا نسخة أخرى للمفاخرة ضمن مجموعة من المفاخرات بخط يوحنا بن يوسف وارسى الفرنسيس ترجع لسنة ١٨٤٠م، وهى تحمل رقم ١٥٨٦ أدب، تأليف عر الدين المقدسى ولعله « محمد بن على بن عبد الرحمن بن محمد بن سليمان . المقدسى، عز الدين (٧٦٤ ـ ٨٢٠هـ) وأقول أن المقدسى هذا جامع لبعض تلك المفاخرات والمناظرات ولا ندرى بالضبط من هو مؤلف هذه المفاخرة .

وقد اعتمدت على هذه النسخة أساسا للنشر والتحقيق لأنها كاملة

ونادرة الأخطاء وهى تقع فى خمس عشرة صفحة بخط نسخ جميل، ومسطرتها خمسة عشرا سطرا فى الصفحة الواحدة.

أما المفاخرة داخل مخطوط النزهة الزهية فتقع فى أربع ورقات (من ورقة، ٧٥ إلى ورقة ٧٩) داخل المخطوط ومسطرتها عشرين سطرا وهى بالخط النسخ الجميل، وقد درج الناسخ على استخدام الأسلوب الاملائى المتبع فى زمنه من حذف الهمزة من آخر الكلمات وتحويل الهمزة اللينة فى وسط الكلام إلى ياء، هذا فى كلا النسختين، وفى النزهة كتب التاء المربوطة تاءاً مفتوحة وكتب حرف العلة حسب نطقه وليس حسب أصله.

وقد صححت الأخطاء الاملائية والنحوية بالمفاخرة ولم اشر إلا لبعضها حتى لا أشتت فكر القارئ عن الموضوع، وقمت بالتعليق على النص فى الهوامش، أما عن الفهارس الخاصة بالتراجم والبلدان والمصطلحات فجعلتها فى أخر الكتاب.

أما عن زمنٍ تأليف هذه المفاخرة فنرجح إلى أنها تعود إلى آخر القرن ٩هـ/ ١٥م بناءاً على المعلومات التى حوتها وبالمقارنة مع باقى المفاحرات المشابهة.

ب ـ التقييم

١ ـ التقييم الشكلى

نحن هنا أمام مفاخرة أدبية ذات طابع منتشر فى العصر المملوكى يتميز بالجمع بين الفصيح والعامى فى نسيج درامى حاول فيه كاتبها أن يرضى

جميع الأطراف بالنسبة لمتذوقى الأدب فى العصر المملوكى، وقد عمد إلى الكتابة بأسلوب السجع الذى كان متبعا آنذاك، وافتقرت المفاخرة إلى الصور البيانية والمحسنات البديعية نظرا لطبيعة موضوعها.

وقد درج الكاتب كغيره من معاصرين على اتباع الأسلوب الشائع بين أقرانه فى الكتابة من الاستشهاد بالقرآن الكريم والحديث النبوى والأمثال والأشعار ومحاولة توظيفها فى النص، وقد نجح هنا فيما يختص بالحديث عن متعلقات بركة الرطلى والجسر عليها من ارتباطهما بمعاقرة الخمور والحشيش.

وجاءت جمل المفاخرة مناسبة فى الطول والقصر والجرس الموسيقى مع توظيف الألفاظ فى مكانها، والطابع العام للمفاخرة هو طابع الخفة والهزل وقد بدأها بقوله «روى لهو عن خلاعة عن الطرب بن المحون بإسنادهما عن حديث الماء المسلسل، المرفوع إلى كل نهر وجدول قال حكى الربيع..» وهذا الطابع الهزلى نلاحظه فى جمل وعبارات وألفاظ المفاخرة..

وجاءت بعض عبارات الكاتب سلسة معبرة، ففى مجال الفخر قال على لسان الجسر فى المباهاة والتفاخر«.. فإنى أبو المحاسن واللطائف، والخلاعة والمقاصف، ونزهة الأحداق والمهج، ومحل البسط والفرج، مربع الأنس فى الأوطان، ومرتع الغيد والغزلان..».

وقوله على لسان البركة فى ردِّها على الجسر «.. فأنا ذات الوجوه الصباح والألسن الفصاح والنفوس النفايس والقدود الموايس والمنظر البهيج والروض الأريج والقصور المشيدة والسيرة الحميدة..».

وحين انتقل الكتاتب إلى الذم والمعايبة بين المتخاصمين وصل الكاتب فى تعبيره إلى أسلوب الردح بمفهومنا المعاصر على ألسن العامة مثال ما قاله على لسان الجسر « .. لقد ارتقيت مرتقا صعبا يا بركة القراميط ومأوى أيام نشوفك الأزاليط، ياقصعة شوربة بلا معالق، يا ذات الأحجار والخنادق . . » .

ويتصاعد الخط الدرامى ويبلغ الردح قمَّته وأشدَّه حين يرد الجسر على البركة ويقول « .. أسرفتى فى الإطناب، ولى زمان أوقرك يا أَخْسٌ القحاب ياحقرة يا نقرة، ياباهتة يا وجه السخرة، عامت فى أرحامك المراكب خاض فيك الراجل والراكب . . » .

ويختتم المؤلف المفاخرة بالصلح بين الخصمين على يد وليهما النيل ثم قصيدة فى مدح مصر.

٢ ـ التقييم الموضوعى

حوت هذه المفاخرة على حقائق ومعلومات هامة قد لا يجود بها كتاب للتاريخ يحوى مئات الأوراق. فهى تبين لنا دور النيل الذى كان ـ ولا يزال أساس لكل متنزهات مصر فهو الذى يمد برك القاهرة وخلجانها وبساتينها بالماء فتصير فى أبهى زينة وأجمل هيئة فى أيام فيضانه قبل أيام الاستقرار التى ترتبت على انشاء السدود والقناطر وتنظيم وسائل الرى فى عصرنا الحديث.

وترسم لنا المفاخرة صورة اجتماعية للمجتمع المصرى إبان العصر المملوكى قليلا ما يتطرق إليها المؤرخون، فهى توضح لنا أن بركة الرطلى

والجسر عليها كائنا على قمة متنزهات مصر، وأوى إلى ربوعهما المتنزهون والمتفرجون والخلعاء والمتهتكون ودعاة اللهو والقصف للهو والترويح عن النفس، يجوبون فى ربوع البركة بمراكب النزهة المعروفة حينئذ بالشخاتير يمرحون ويلهون وينعمون بما لذ وطاب من الأطعمة والأشربة والحلاوات التى بحوزتهم بالإضافة إلى الأسواق العائمة لمراكب الباعة بينهم وعلى شواطىء البركة والجسر، وسط مظاهر تسلية وإثارة من الألعاب الشيقة التى تلعب هناك وحلقات الحواة والملاكمة والمصارعة وحلقات الغناء والطرب والموسيقى وغيرها.

وتوضح المناظرة صورة لطبقة سكان الجسر والبركة حيث أكدت ماسبق أن أوضحناه بالدراسة من تميز ساكنى المتنزهات وخاصة البركة والجسر بين طبقات المجتمع فهم يمثلون الصفوة من الناس على رأسهم القضاة والعلماء وأصحاب المكانة والوظائف العليا فى الدولة فى العصر المملوكى مثل الوزراء والحجاب والنظار والمحتسبون وكبار الموظفين وليس أدل على ذلك من كون بيت الوزارة كان على البركة.

وكانت البيوت هناك عبارة عن قصور فخمة حافلة بالزخارف مفروشة بأغلى المفروشات والأثاث، وكانت هذه القصور تسكن بصفة خاصة فى فصل الصيف وقت امتلاء البركة بالماء فهى تعتبر المصيف للقاهرة وكان أصحابها يملكون بيوتا وقصورا داخل المدينة.

ومما يحسب للمؤلف ذكره لبعض اسماء الباعة والحرفيين الذين يندر ذكرهم فى المؤلفات التاريخية وكذلك بعض الأطعمة والحلاوات المملوكية مثل السنبوسك والخيطية والهيطلية واللبنية والماوردية والعصيد والفالوذج وغيرها.

والمفاخرة ترينا بعض الأمراض الاجتماعية السائدة فى العصر المملوكى إذ كانت المتنزهات وخاصة البركة والجسر مرتبطة بها إلى حد كبير إذ كانت عاملا هاما وسببا رئيسا فى تفشى وانتشار تلك الأمراض انتشارا كبيرا بين العامة والخاصة ومن أهمها معاقرة الخمور وتعاطى الحشيش الذى كان يزرع فى البركة وما حولها من أرض الطبالة ومن خلالها انتشر فى أنحاء مصر، بالإضافة إلى السلوك الخاطئ المتمثل فى اختلاط الجنسين إذ كانت البركة والجسر قبلة المتنزهين والمتفرجين والخلعاء والمتهتكين ودعاة اللهو والقصف.

هكذا نرى صورة اجتماعية للمجتمع المملوكى من خلال تلك الصفحات القليلة.

ثالثا : النص

مفاخرة بركة الرطلى والجسر

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

روى لهو بن خلاعة عن الطرب ابن المجون بإسنادهما عن حديث الماء المسلسل، المرفوع إلى كل نهر وجدول. قال : حكى الربيع فى زمن الصفا، عن النيل المبارك [١] أبى الوفا . قال : بينما [٢] أنا أقابل الناس فى زمن الكسر بالجبر [٣]، وأهدى من كدرى الصفا إلى كل عالم وحبر، إذ

---

(١) (البارد) في الأصل، والتصحيح من النزهة الزهية .

(٢) (بينا) فى الأصل وفى النزهة أيضا

(٣) الكسر مقصود به كسر السد الترابى الذى يقع على فم الخليج الكبير (الخليج المصرى) عند حلول وفاء النيل وحدوث الفيضان السنوى، ويكون ذلك إيذانا بمد جميع الخلجان والترع والبرك بماء الفيضان لأن أفواهها تسد فى الشتاء وهى العملية المعروفة بالسدة الشتوية حيث يصل النيل حينئذ إلى أدنى منسوب له وكان وفاء النيل يتم فى فصل الصيف وغالبا فى شهر أغسطس، وكانت علامة الوفا وصول منسوب النيل فى مقياس النيل بجزيرة الروضة إلى ١٦ ذراعا، وكان يعبر عن كسر السد بالجبر لأنه جبر لخواطر الناس وإيذانا بالخير، وفى ذلك يقول الشاعر:

كسر الخليج وكان ذلك نعمة   سرت قلوب العالمين لبشره

ومن العجائب والغرائب أنه   جبرت قلوب المسلمين لكسره

خالجت الخليج بجيش العرمرم (١)، وبركت على ملاقاة الجسر الأعظم(٢)، فاقتنصت من بين أيديهما كل غزال شارد، ونصبت شراك النزهة لكل صادر ووارد، فقام الجسر عند ذلك على ساق، وأحدقت حوله البركة بالأحداق، وأشار إلى من خوف هجومى عليهما لكلٍ بنان، وما منهما إلا نادى : الأمان الأمان، فعندها بلغت كلامًا منه فاستبشر(٣)، وألبستهما خلعتين طرازهما (٤)، من الزمرد الأخضر. فلما راق نسيمها، ورق أديمهما، قام كل منهما يفخر على صاحبه بمفاخر، ويذكر ماله من المحاسن ويفاخر، فأول ما برز للمناظرة الجسر الخليع، وقد توشح ببرد من زهر الربيع، وقال :

أيتها البركة العميقة، واللجة الغريقة (٥)، لا تنظرى إلى قصورك المشيدة، وداراتك البعيدة فإنى أبو المحاسن واللطايف، والخلاعة

---

(١) (عالجت الخيلج بحشيش) فى النزهة، العرمرم: الشديد وجيش عرمرم: حسن كثير * الخليج حفره عمرو بن العاص فاتح مصر وواليها من قبل خليفة المسلمين عمر بن الخطاب أمير المؤمنين فى سنة ٢٣هـ/ ٦٤٤م وسماه آنذاك خليج أمير المؤمنين نسبة إلى عمربن الخطاب أمير المؤمنين الذى حفر أيامه وبامره ليسهل نقل الزاد والتجارة إلى الحجاز خاصة بعد عام الرمادة هناك، وكان فم الخليج آنذاك شمال الفسطاط فى النقطة التى يمثلها الآن التقاء شارع نوبار بشارع بورسعيد (شارع الخليج المصرى سابقا) ثم يمر الخليج باراضى الشرقية والإسماعيلية مخترقا البحيرات ويمتد حتى يصب عند القلزم (السويس) وقد عرف الخليج فى العصر المملوكى باسم الخليج الحاكمى أو الخليج الكبير أو الخليج فقط، ويمثل مساره داخل القاهرة شارع بورسعيد.

(٢) الجسر الأعظم هو الجسر الذى كان يفصل بين بركة الفيل وبين بركة قارون ويمثله الآن شارع مراسينا (شارع الشيخ عبد المجيد اللبان حاليا) بالسيدة زينب.

(٣) (فاستبشر) فى الأصل والتصحيح من النزهة.

(٤) الخلعة المراد بها ما يخلع به أو يهديه ولى الأمر إلى الرعية أو الضيوف من الثياب ونحوه، والطراز هو الزخرفة المنقوشة بخيوط الحرير أو بأسلاك الذهب أو الفضة لتزيين الثوب.

(٥) اللجة معظم البحر وتردد أمواجه (ج) لجج ولجاج، البحر اللجى: المتلاطم الأمواج.

والمقاصف (١)، ونزهة الأحداق والمهج، ومحل البسط والفرج، ومربع الأنس فى الأوطان، ومرتع الغيد والغزلان، وقد نصبت شراك اللحاظ لمصارع العشااق، وقصورى مطالع بدور الآفاق، يستأنس بى كل غزال نافد، ويهجع (٢) فىَّ كل طرف ساهر، يهتدى فى ظلام الشعور بضياء أقمارى، هذا والسرور خليلى والماء بالخليج جارى (٣)، قد أصبحت تذكرة للجنان، وأنشد فىّ لسان حال الزمان :

يا حبذا جسر به	أقمار حسن تطلع
برياض حسن بديعة	للعين فيه مرتع

فلما سمعت البركة منه ذلك نظرت إليه بعين الغضب، وفوقت (٤) من قوس داراتها سهام العطب، وقالت له :

ياردى الطباع، وأخس البقاع، تفخر علىّ بحشيشك الخسيس، وتغزونى من الغواة بجنود إبليس، أين أنت من الدرة السنية، والهالة القمرية، فأنا ذات الوجوه الصباح، والألسن الفصاح، والنفوس النفايس، والقدود الموايس، والمنظر البهيج، والروض الأريج، والقصور المشيدة، والسيرة الحميدة، فانظر إلى نسائك البارزات من الطيقان (٥)، المعروضات على الشيوخ والكهول والشباب والصبيان، فأنا ذات الستر الرفيع،

---

(١) قصف فى اللغة بمعنى أقام فى الطعام والشراب والترفيه، والقصف : اللهو واللعب والافتنان فى الطعام والشراب والمقصف مكان للترفيه وتناول الطعام والشراب (ج) مقاصف .

(٢) (يهج) فى النزهة .

(٣) (سارى) فى النزهة.

(٤) (فوقست) فى النزهة. وفى اللغة (فوق) الشيء فوقا وفواقا : علاه، وفوق السهم : وضع فوقه فى الوتر ليرمى به، والفوق من السهم : حيث يثبت الوتر منه وله زمتان وهما حرفاه (ج) أفواق .

(٥) الطيقان جمع طاقة وهى الشباك أو النافذة، ومن المعروف ان كل كتّاب التاريخ والوثائق المملوكية استعملوا كلمة شباك وطاقة ولم تستعمل كلمة مشربية آنذاك إذ أنها وليدة العصر العثمانى .

والحجاب المنيع، ذات القصور والإيوان، وكما قال فىّ عين الزمان وأمام الوقت الفصيح اللسان:

تسامت إلى افق المعالى بركة | بمن حل فيها من أولى المجد والفضل
فإن تلك يوما سائلا عن محلها | فسل فلك الميزان عن بركة الرطلى

فلما سمع الجسر ذلك منها زاد حنقه وتنمر، وجدّ عن ساعده وتشمر، وقال: لقد ارتقيت مرتقًا صعبًا يا بركة القراميط، ومأوى أيام نشوفك الأزاليط (١)، ياقصعة شوربة بلا معالق، ياذات الأحجار والخنادق، نسيتى وقوفك فى الشمس أيام النشوف (٢)، وأنت شبه اصطبل من غير سقوف، فلا تغترى بعين مائك الساهية، فمازلتى من الحسن عارية (٣)، ألم تعلمى أنى نزهة الأنام، وتحفة الأيام، فمن ذا يبارزنى أو يناضل، أو يباهينى أو يباهل، تعايرينى بالحشيش الخسيس، وتقولى أن متناوله من جنود إبليس، نسيتى خمرك وخمارك، وجمعك وكثرة فشارك، تذمى العقار (٤)، الذى أزرى بالعقار، مفتاح الأفراح، ومصباح الأرواح، ينصر على الهم، ويكسر جيش الغمّ، يجمع شمل الأحباب، ويغل حدة الشباب، ويشهى الطعام والشراب، ولايختص ببعض المواضع، بل يستعمل فى السوق والجامع، ويروض أخلاق الكرام،

---

(١) الاراليط كلمة عامة ربما مشتقة من مادة زلط والزلط المشى السريع.

(٢) المقصود بايام النشوف هو حلو البركة من الماء إذ كانت برك القاهرة تمتلأ بماء النيل فى الصيف فقط أيام فيضان النيل وينحسر عنها الماء في الشتاء وتزرع أرضها بمحاصيل شتوية.

(٣) (فلا تغترى .. عارية) ساقطة من النزهة.

(٤) العقار هو الحشيش.

وأكله خير من شرب المدام، وليس فى تحريمه نص مسموع، ولا على بائعه حد مشروع، ولاصحيح ولامعلول [1] ثم انشأ يقول:

هى البكر لم تنكح بماء سحابة ... ولا عصرت يوما برجل ولا يد
ولا عبث القسيس يوما بكاسه ... ولا قربوا من دنها نفس ملحد
ولا نص فى تحريمها عند مالك ... ولا حد عند الشافعى وأحمد
ولا اثبت النعمان تنجيس عينها ... فخذها بجد المشرفى المهند
وكُفّ اكُفّ الهم بالكف واسترح ... ولا تتركن يوم السرور إلى غد

فعندها قال البركة: يا من يروم الفضل ويدعيه، ويفخر بما لا فخر فيه، لقد قلت وأسرعت، وتكلمت فأوسعت [2] ياجاهل ياتعيس، تفاخر بحشيشك الخندريس [3]، قد قلت شططا، وغلطت خطأ، وأخطأت غلطا، لقد جُرْت فى قولك ياشكل الإنكيس، بافتخارك بمن تصحيف[4] إسمه الخسيس، وتعديث يا غير محترم، على من أصل [5] اسمها الكرمة المشتقة من الكرم، فالكرمة لها القطوف الدانيات، والطعوم اللذيذة النكهات، والألوان الفائقة، والمطاعم الذائقة [6]، ثمرتها تخصب الأبدان، وتدر الألبان، وتصلح الكبدة، وتنفع المعدة، وتغذى وتسر، وتنعظ ولا تضر، وتحلل وتلين، وترطب وتسخن، وتنعش الأرواح، وتحدث الأفراح، وأما ماؤه فيفرح القلب، ويزيل الكرب، ويحرك الأخلاق الرضية، ويحدث الصفات المرضية، كالشجاعة والكرم، ثم البراعة والشيم[7]، وطبعه طبع

(١) انتشرت زراعة الحشيش وتعاطيه فى العصر المملوكى ورخص به اغلب الأوقات وعانى المصريون آنذاك من آثاره الضارة (ولا يزال) وقد قامت بعض المحاولات لإبطاله إلا ان ذلك لم يستمر كثيرا.

(٢) (وتكلمت فاخطأت) فى النزهة.

(٣) الخندريس هى الخمر القديمة.

(٤) (تضيف) فى النزهة.

(٥) (اصل) ساقطة فى النزهة.

(٦) (الرائقة) فى النزهة.

(٧) (كالشجاعة .. والشيم) ساقطة فى النزهة.

الحياة، وهو إنسان عين [1] المياه، جوهرها السكر والطرب، أشبه مذاقه بالزلال والضرب، لاستيلاء السعدين على مزاجه، واتفاقهما على هيلاجه[2] وأجاد المقال، من ترنم وقال:

وهى كياقوت جرى ذائبًا ... وهكذا الياقوت ماء جمد
ترقرق الروح فى لطفه ... وتذهب السقم وتنفى الكمد

فقال الجسر: ليس الأمر [3] كما قلتى، ولا المدح كما عقلتى، أتمدحى ما يحط الإنسانية، من مرتبة الملائكة إلى الحيوانية، الخمر جامعة الإثم وأم البكائر، وأس الشرور وباب الحقائر، العقل يذمها، قال الله تعالى ﴿ **إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه** ﴾ [4] وقال جل وعلا عن رسوله صلى الله عليه وسلم ﴿ **وما أتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا** ﴾ [5] وقدحرم الرسول صلى الله عليه وسلم الشراب، ولفظ اجتنبوا أمر بالاجتناب، وتسميته رجسًا تأكيد للتجريم، إذ كل رجس حرام فهو حرام ذميم [6]، فثبت تحريم الصهباء [7]، وفيه تقول العقلاء الالباء:

وما الفخر بالشىء المحرم والذى ... إذا شرب الإنسان منه قليلا
تنقل فى أطواره متقهقرا ... إلى أن يرى الملأ منه قتيلا
ولا فرق بين السكر حالاً وبينه ... فبئس شرابا ثم ساء نهيلا [8]

---

(١) انسان العين: ناظرها.
(٢) (جوهرها .. هيلاجه) ساقطة من النزهة.
(٣) (الأمر) ساقطة فى الأصل وفى النزهة أيضا.
(٤) سورة المائدة، الآية ٨٩.
(٥) سورة الحشر الآية ٧.
(٦) (وتسمية ... ذميم) ساقطة فى النزهة.
(٧) الصهباء = الخمر.
(٨) هذا البيت ساقط فى النزهة.

وهذا فعل الشراب، ويلحقه بالذوق السراب، فإن الخمر عدو الإنسانية، وصديق النفوس الحيوانية، يكسب شاربه سبعة أخلاق، متعاقبات مالها من خلاق، الفهدية والسبعية والقردية والعنزية والضبعية والكلبية والسابعة [١] الخنزيرية. ثم أن يغيب عمن أتاه، ويفقد لذة الحياة، ويلقى مذموما مصروعا، ويفيق مخمورا موجوعا، فلو تناولتى من هذا العقار جفنه، أو طابة من جفنة، وغضضتى طرفك، وسددتى أنفك، وغطيتى ولطيتى فاك بكفك، وهززت عطفك، لاطلعت على سرها، وما يبدو من فعلها وأمرها [٢].

فقالت البركة: على رسلك يابهلول، فمن جهلك ما تعرف الفاضل من المفضول، بحكمك على الخمور وتطوره، والحكم على الشيء فرع من تصوره، وبالجملة المرأى غير محمود، والزائد فى الحد نقص فى المحدود [٣]، ومن اقتصر على ما يوجب الشرور، لم يبلغ ما يوجب السرور، فإن التأثير بالكمية، غير التأثير بالكيفية، وناهيك أنها أنهار فى الجنة، وتحريمها كتحريم الذهب فى السنّة، لتكون خالصة هناك للمؤمنين، ولو لم تكن غاية للراغبين، لما جعلت لذة للشاربين، وليس لك أن تمدح حشيشك وتذم الشمول [٤]، فيرمى عقلك بالداء المعضول، تحلل هذا وتحرم هذا باختيارك، فهذا من جملة فشارك. روى نافع عن ابن عمر عن النبى عليه الصلاة والسلام أنه قال: كل مسكر حرام والسكر محرم فى سائر الملل، وعند أرباب الآراء والنحل. فاستفق ياولهان، واسمع فعل

---

(١) (السابعة) ساقطة فى النزهة. (٢) (ثم ان يغيب .. وامرها) ساقطة فى النزهة.

(٣) (وبالجملة .. المحدود) ساقطة فى النزهة.

(٤) الشمول فى اللغة هى الخمر أو الباردة منها سميت بذلك لأنها تجمع شمل شاربيها أو لأنها تشتمل على العقل فتملكه وتذهب به (انظر المنجد للويس معلوف مادة شمل).

حشيشك فى الأبدان؛ تجفف الدماغ والأعصاب، وتغير المدر (١) وقلة الإنتصاب، تفسد الاصطناع، وتغير الطباع ، وتوقب الغاسق، وتعتر الفاسق، وتكسل الإنسان، وتدع الشجاع جبان (٢)، كم أسد أصبح بها مصادا، سائس (٣) أضحى منقادا ، ورئيس أضحى بها مرؤوسا، وكريم غدا خسيساً، بئس ما به افتخرت، رمت التقدم فتأخرت، وليس لنا بالع هذا وحاس هذا فى فيه، أطلت فلنرجع إلى ما نحن فيه، لقد أتيت من جهلك بالعجب، وبالغت فى سوء الأدب، وعدلت عن القول الصحيح، ونطقت بالكذب الصريح، فمثلك لايطنب فى عدله، ويحمل قوله على جهله، أخبرنى بمن عاشرت من العلماء والفضلاء، والرؤساء والعقلاء ، فأنت عندى من العوام ولو كنت ابن عبد السلام (٤)، هل صحبت كالمقر الصاحب (٥)، وهل قُرَّت عيونك بناظر وحاجب (٦)، وأنا دُرَّة عقد (٧) السلوك، ومنزل أبناء الملوك (٨)، فمن أصحابك ياكثير الفشار، المحيريق وابن المهتار، كم افتضح عندهما من يدب دبيب الزيت، ولايرجع ولو

---

(١) (تغير السدد) فى الأصل والتصويب من النزهة. (٢) (وتوقب.. حيان) ساقطة فى النزهة.

(٣) سوسى فى الأصل. (٤) (فانت عندى .. عبد السلام) ساقطة فى النزهة.

(٥) المقر الصاحب هو شهاب الدين أحمد بن الجيعان الذى تولى وظيفة كاتب السر فى آخر الدولة المملوكية وأول الدولة العثمانية، وهو واحد من أفراد عائلة ابن الجيعان الذين تولوا وظيفتى ديوان الجيش والخزانة وتوارثوها لمدة تزيد على مائة وعشرين عاما فى الدولتين المملوكية والعثمانية، وكانت دورهم بجوار جامع البركة وقاموا باصلاحه عدة مرات.

(٦) اشارة إلى سكن أصحاب الوظائف الهامة فى الدولة كالوزراء والحجاب وغيرهم على شواطئ البركة .

(٧) فى الأصل عد .

* وفى عبارة درة عقد السلوك ربما اشارة إلى مؤلفات المؤرخين ابن حجر العسقلانى والعينى والمقريزى (الدور الكامنة ، عقد الجمان، السلوك لمعرفة لدول الملوك) وخصوصا ان ابن حجر العسقلانى كان ساكنا بالبركة ولطالما اشار العينى والمقريزى لارتيادهما كثيرا البركة .

(٨) (ومنزل ابناء الملوك) اشارة إلى بيت ابن السلطان قايتباى على البركة آنداك

كان ابن صاحب البيت، لايفارق الخيط والكلاب، والدرج والتراب، والمقص والحلقة، والشوكة والخرقة، لايتوقف فى إقامة الأعذار (١)، ليله فى الحقيقة كالنهار، ومعظم اجتهاده في وقت الأسحار، كم قبض من عندهما متولى دار الحرب من أورث الناس الحزن والكآبة، وورث صاحب المال من غير قرابة (٢)، يفتح الأقفال الموثقة، والأبواب المغلقة، ويوسع النقوب، ويضيق القلوب، ويقرب الكروب، ويبعد المطلوب، كم فيك من استباح جمعاً منيعاً، وبلغ مكاناً رفيعاً، وركب من الطريق صعابها، وأعجز الولاه ونوابها، لايفكر فى عواقب الأمور، ولايخشى نوايب المحذور، لا تهو له الأقدام، ولا ترهبة الحمام، وسواء لديه الحلال والحرام(٣)، أتريد بمثل هذه الأصحاب أن تكون بين الملأ مشكوراً، وإذا أبديت لهم عذرا تصير معذوراً، فهلا إقتديت بآثارى، وجريت فى مضمارى (٤) ثم أنشأت تقول (٥).

أنا درة الحسن البديع وهالة ... لبدور تُمٍّ اشرقت للناظر (٦)
هذا وأنت محل كل ممزق ... بالسرد يفزع من خيال الطائر (٧)
ودعيت جسراً فى البرية عندما ... امسيت تحوى كل لص جاسر (٨)

فلما سمع الجسر من البركة هذا الإخراق، تنمرت عيونه وشمر عن زند وساق، وقال : أمعنتى في الخطاب، وأسرفتى فى الأطناب، ولى زمان

(١) (لا يتوقف .. الاعذار) ساقطة فى النزهة. (٢) (ومعظم . قرابة) ساقطة فى النزهة.
(٣) (ويبعد المطلوب.. والحرام) ساقطة فى النزهة. (٤) (فهلا .. مضمارى) ساقطة فى النزهة.
(٥) (ثم انشا يقول) فى النزهة
(٦) (ثم اشرقت) فى الأصل والتصويب من النزهة.
(٧) السرد : الدرع (٨) هذا البيت ساقط فى النزهة.

أوقرك يا أخس القحاب، ياحفرة (١) يانقرة، يا باهته يا وجه السخرة، عامت فى أرحامك المراكب، وخاض فيك الراجل والراكب، هلا نلتى منالى، أو يسمح الدهر بمثالى.

فالتفتت إليه البركة وقالت: إحفظ لسانك ياتعيس، يا شكل الأنكيس(٢)، وقرابة إبليس، وغض طرفك يا سوق الفسوق، وأخو الجنينة وابن عم باب اللوق (٣)، فمن قولك إني ما نلت منالك، ولا سمح الدهر بمثالك، تبًّا لمن جعل الباطل حقا، وبُعْدًا له وسُحْقًا، فبماذا تصول: وبماذا فى حلبة الفخار تجول، أتريد أن تكون لى مشابها، وأنا أحق بالمفاخر وأولى بها، وليس البرُّ بان تأتوا البيوت من ظهورها، ولكن البِّر من اتقى وأتوا البيوت من أبوابها (٤)، فلو رجعت عن جهلك، وعدت إلى عقلك، لحكمتك فىّ وفى نفسك، فانظر إلى ماذا يحتوى سوقك، على الفوال صليع الأقطع، والصاجاتى عبيد الأقرع، وفيه البادنجان المبزر، والبطيخ المنزرع المقور، ولحم وقائع الجمال المدقوق، والفول الحار والحمص المسلوق، والعدس النابت (٥) من غير بقول، والملوحة وأم الخلول، وأنا ممن يجلب إلىّ سائر الخيرات، وتغنم بى المسرات، من أسمطة تمد، وأطعمة تعتد، من أوز ودجاج، وخبز وكماج، وسمك طرى ومالح،

---

(١) (يا حضرة) فى النزهة.

(٢) الانكيس كلمة عامية ربما تعنى الجوال (الشوال) وربما مشتقة من النكس وهو قلب الشيء على رأسه، ونكس رأسه بمعنى أماله.

(٣) (يا كثير الفسوق وآخر الجنينة وباب اللوق) فى النزهة. والجنينة كانت تقع جنوبى بركة الرطلى وكانت موطنا لزراعة الحشيش بها.

(٤) (وليس البر .. أبوابها) ساقطة فى النزهة. (٥) (البايت) فى النزهة.

مقلى ومكفن بالصلص صالح، وطيور مسفدة [١]، ودجاج بالسكر والمسك مصفدة، وألبان منفحة، وأجبان مشرحة، والأرز الأصفر والفلفل، والشرائح السوادج والمعسل، والأرز باللبن الأبيض، ثم السنبوسك المحلى والمحمض [٢]، والخيطية والهيطلية، واللبنية والمتوكلية، والحبشية والعنبيه [٣]، والماوردية والتمرية، وسكر دانات وخلول، ومصرفات وبقول [٤]، ومن الحلاوات ما صنع من الشهد والسكر المذاب، المشهور بالجلاب، من السكب الممسك، والهبر المسير والمشبك، والعصيد والفالوج والمرشوش، والسكر المصنوع للطاخ المنقوش، واللوزينج والقطايف المحشو والقاهرية القوية النار، والقرعية الشديدة الاخضرار [٥]، وهرايس الفستق والكنايف، وأصابع زينب والقطايف، فأين أنت من أمورى التامة، التى تعرفها الخاصة والعامة.

فالتفت إليها الجسر التفات المذعور، وأطلق لسان الفحش والفجور، وقال : إيش تقولى يافضلة الطجدارية والفراشين، والغلمان والسقايين، والراكبدارية والطبالين، والعرفا والدلالين، والعتالين والفحامين، والزبالين واللحامين، والملاحين والقداسين، والرواسين [٦]، والمصارعين، والملاكمين، والمنجمين، والمشعبذين، ما خليتى طايفة حتى كفيتها، ولا

(١) (مسدة) فى النزهة، ومسفده بمعنى مشوية على عود حديد، ففى اللغة (السفود) : عود من حديد يحلم فيه اللحم ليشوى (ح) سفافيد ومصفده : موثقة.

(٢) (والأرز ... والمحمض) ساقطة فى النزهة.

(٣) (والحبشية والعنبية) ساقطة فى النزهة.

(٤) (وسكر دانات.. وبقول) ساقطة فى الرهة.

(٥) (اللوزنيج ... الاحصرار) ساقطة فى النزهة.

(٦) (والقداسين والرواسين) ساقطة فى النزهة.

مِنَّة من أحد إلا وليتيها (١)، ألم تعلمى إن فضلى واصل إليكى، وصدقتى فى كل الأوقات جارية عليكى، ثم ارتجز بالشعر بديها، يمدح نفسه ويهجيها:

على كل حال إن حسنى ظاهر ... لديك ولى حق عليك التفضل
فلولاى ما كانت بقاعك قطرة ... من الماء تبدو للذى يتأمل
فأنت عجوز السوء مازلت بركة ... تخوض بك الحيتان والسفن ترحل
وعما قليل تصبحى شبه جيفة ... عليها عوادى الطير تعلو وتسفل
ويغزو إلى من حل فيك مع الشتاء ... جيوش من الناموس بالقرص يعمل (٢)
ويرحل عندك أهليكى ثم تلتقى ... مدى الحول ذلا عنك لا يتحول

فلما فرغ من إنشاده، همت البركة بهجوه وجوابه ، سد النيل المبارك فاهما عن الفحش فى الخطاب، ودخل بينهما بالصلح وأخذ يجرى فى العتاب، وقال : كفا عن هذا الكلام، لا يسمع بكما ضواحى الشام، فإن كلا منكما لأهله نزهة ومفترج، وما على المتقى منكما من حرج، فامتثلا أمره، ورضيا حكمه، وقاما إلى بعضهما وتعانقا، وانضما بالصدر وتلاصقا، واعترف كل منهما لصاحبه واستغفر، وحمد مولاه على ما أولاه من المحاسن وشكر، ولما قلدهما النيل المبارك بالصلح أحسن صنيع، قام يمدح لسان حالهما بكل معنى بديع:

ما سام بالشام برق هل ما طره ... إلا وناظره بالدمع ناظره
متيم طاف بيكار الصدود به ... حتى عليه لقد دارت دوائره
عن مصر لما نأى محبوبه كثرت ... وشاته ولهذا قلَّ ناصره

---

(١) (وكفيتيها) فى النزهة.

(٢) فى الأصل (بالقصر يعمل) وفى النزهة بالقرص يقتل، والصواب ما ذكرته.

فيالها بلدٌ إنساب كوثرها | بشاطئ نظمت فيه جواهره
والشام كالشامة السوداء ضائعة | بجيدها حيثما ضاعت عنابره
ان قل نادر الحسن فى بلد | يوما فقد كثرت فيه نوادره
كذلك الروضة الغناء قلعته | والقوس حاجبه والزهر ناظره (١)
كأنه وصغار الفلك جارية | وادى النقا قد جرت فيه جآذره
لما علا الماء قد سلت خناجره | فاضت دماء على العبرا حناجره
بكف مقياسه فاضت أصابعه | جودا يُسر بها البادى وحاضره
اغلاه فى قاعه الوعسا مجتليا | عرائس الزهر بعد الطى ناشره
ومصر فى وشى حلى الزهر قد حليت | بالقرط والتاج مذ دقت بشائره
لفتية كرقيم الروض ساد بهم | كهف الربيع الذى قد نام سامره (٢)
على بساط من الأزهار فاق على | دهر المتيم تلوينا أزاهره
به الزبدجد والياقوت مع درر | حتى النضار يرى فيه نضائره
من اصفر فاقع مع أبيض يقق | وأسود سجب ليقت محابره
وأخضر يانع فى أحمر شرق | بعنبر الأرض قد ضاعت مجامره
وأزرق لا زوردى يفوق على | أفق السماء الذى نارت زواهره
لله فيها زمان مر لى وحلا | مع الحبيب الذى حُلَّت ضفائره
نماء دمعى وأهوائى وتربتها | ونار قلبى قد طابت عناصره
بهجره ضاقت الدنيا علىّ كما | ضاقت على ردفه يوما مآزره

---

(١) الروضة هى حزيرة الروضة والقوس عبارة عن عقد تبقى من القلعة الصالحية بآخر الجريرة وكان متنزها حليلا وقال فيه الشاعر شمس الدين النواجى :

مصر قالت دمشق لا | تفتخر قط باسمها
لو رأت قوس روضتى | منه راحت بسهمها

(٢) (سادتهم) فى النزهة .

بمسلم الحسن يأتيني إليه إذا | أضلني من ظلام الشعر كافره (١)
أغرقت بالدمع فرعون الصدودوها | قلبي كليم لأن اللحظ ساحره
ألحاظه بهرت قلبي وقد بهرت | عيني بنجد الهوى نهرا غدائره
من خمر ريقته مع كأس مبسمه | باكر صبوحك أهنى العيش باكره
فالقلب منك إذا فني (٢) بقامته | فقد ترنم فوق الأيك طائره

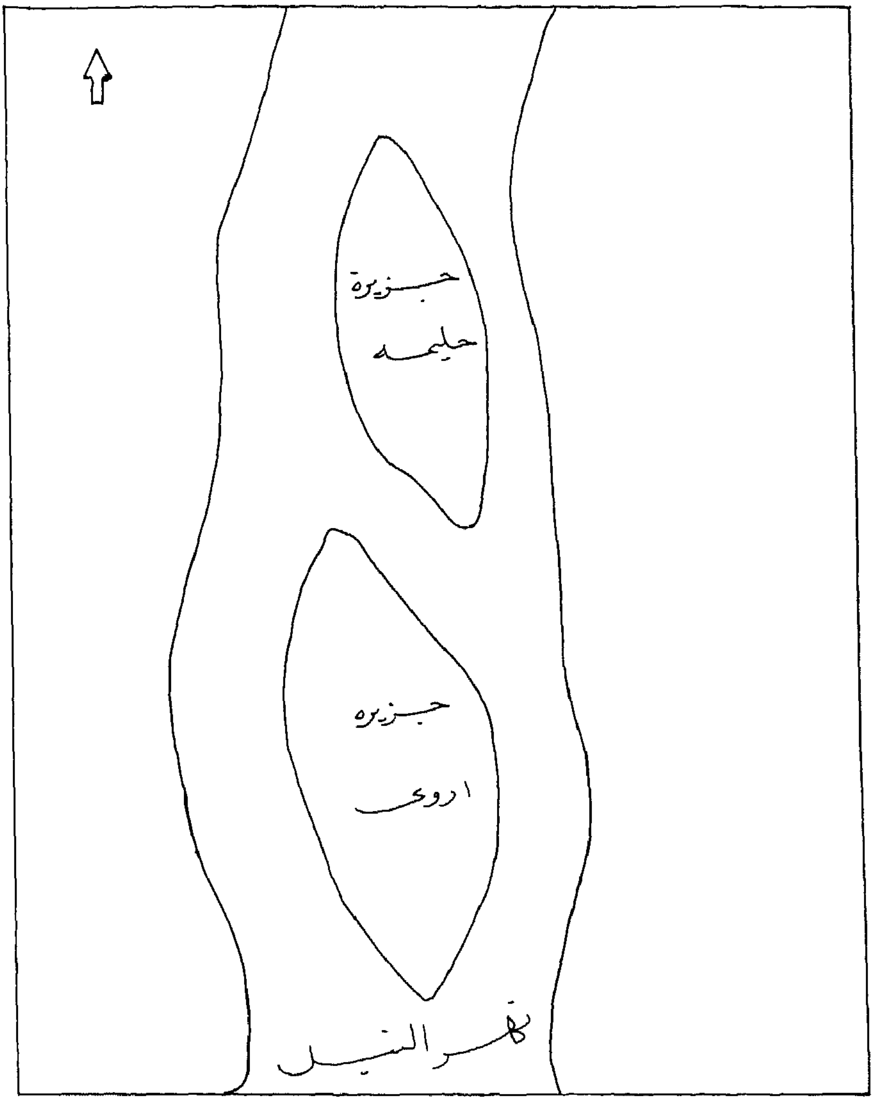
تمت المفاخرة بالتحقيق، والله ولي التوفيق، اللهم أدخل منشيها، وكاتبها وقارئها ومستمعيها، دار السلام ، وهذا آخر الكلام.

---

(١) (أطلني) في النزهة.
(٢) غني في الأصل.

المفاخرة الثانية

الدرة المنيرة فى مناظرة الجسر والجزيرة



(شكل ٦) جزيرة أروى وجزيرة حليمة قبل اندماجهما

أولا : دراسة تاريخية للجزيرة الوسطى

تعرفنا فى المفاخرة الأولى على الجسر وهنا نتعرف على الجزيرة الوسطى ونقول :

سميت الجزيرة الوسطى بهذا الاسم لأنها تقع فيما بين الروضة وبولاق وفيما بين بر القاهرة وبر الجيزة، وكانت تعرف أيضا بجزيرة أروى (١) .

ولم تظهر هذه الجزيرة للوجود إلا بعد سنة ٧٠٠ هـ / ١٣٠٠م وعقب ظهورها بنى الناس فيها الدور الجليلة والأسواق والجامع والطاحون والفرن، وغرسوا فيها البساتين وحفروا الآبار وصارت من أحسن متنزهات مصر (٢) .

وفى سنة ٧٤٧ هـ / ١٣٤٦م ظهرت جزيرة أخرى ما بين بولاق والجزيرة الوسطى سمتها الناس جزيرة حليمة (٣)، وصارت هذه الجزيرة متنزها عظيما ونصب فيها الناس الأخصاص (العشش) وزرعوا ما حول الأخصاص بالزهور والرياحين والمقاشى واتجه أرباب الخلاعة والمجون إليها وتهتكوا بأنواع المحرمات فارتفعت قيمة الأرض بها (٤) وذكر « المقريزى »

---

(١) المقريزى، الخطط جـ ٢ ص ١٨٦ . (٢) نفسه.

(٣) نفسه. (٤) نفسه، ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة حـ ١٠ فى ١٢٩

كثرة المتنزهين بها فقال « .. وتردد إلى هذه الجزيرة أكثر الناس حتى كادت القاهرة أن لايتبت بها أحد » (١).

ثم اتصلت الجزيرتان (أروى وحليمة) بواسطة طرح النيل وصارت جزيرة واحدة وأصبح اسم الجزيرة الوسطى عَلَمًا عليها فى الوثائق والمصادر التاريخية، ومنذ أيام محمد على (١٢٢٠ - ١٢٦٥ هـ / ١٨٠٥ - ١٨٤٨م) صار الجزء الجنوبى منها يعرف باسم الجزيرة والجزء الشمالى يعرف باسم الزمالك (٢).

والجزيرة طولية الشكل وهى من جزر غربى مجرى النيل وتتبع من الناحية الإدارية قسم قصر النيل بمحافظة القاهرة وتبلغ مساحتها خمسمائة وخمسة عشر فدانا حاليا (٣).

وقد اتضح الحرص على تعمير الجزيرة الوسطى منذ نشأتها فى إنشاء جامع بها على يد الطواشى مثقال خادم تذكار ابنة الملك الظاهر بيبرس، وقد ذكر « المقريزى » إنه كان عامرا أيامه (٤) (ت ٨٤٥ هـ / ١٤٤١م) وقد حقق المرحوم العلامة محمد بك رمزى موقع هذا الجامع فذكر انه هو الموجود حتى الآن والذى يعرف بجامع الجزيرة فى حديقة النهر (٥) « أسفل كوبرى ٦ أكتوبر حاليا ».

---

(١) المقريزى، الخطط جـ ١ ص ١٨٦.

(٢) الزمالك كلمة تركية معناها الأخصاص (العشش) نسبة للأخصاص التى بناها حاشية محمد على حول قصره الذى بناه شمال الجزيرة.

(٣) تقرير من وزارة الأشغال.

(٤) الخطط جـ ٢ ص ٣٢٥.

(٥) انظر تعليق محمد رمزى على النجوم الزاهرة جـ ٩ ص ٢٠٦.

وقد حدثت بمصر أزمات كبيرة بدأت سنة ٨٠٦ هـ / ١٤٠٣ م وأهم أسبابها عدم وفاء النيل وحدوث شراقى عظيم وقد أثرت تلك الأزمات تأثيرا عظيما على عمران القاهرة وأدت إلى تخريب عدد من أحيائها خصوصا ظواهرها ، وقد تأثرت الجزيرة الوسطى بتلك الأحداث، فذكر المقريزى آنذاك« .. وتلاشت مساكن هذه الجزيرة منذ كانت الحوادث فى سنة ست وثمانمائة وفيها إلى اليوم بقية حسنة (١).

ولكن تلك الأزمات لم تستمر طويلا وعاد التعمير بالقاهرة للخطط التى تخربت خصوصا التى تمتد على شاطئ النيل على يد السلطان المؤيد شيخ (٨١٥ - ٨٢٤هـ / ١٤١٢ - ١٤٢٠م) وتوالى العمران بالجزيرة الوسطى بدرجة كبيرة بعد ذلك حتى أن السلطان اينال (٨٥٧ - ٨٦٥ هـ / ١٤٥٣ - ١٤٦١م) أمر فى يوم ١٣ جمادى الأولى سنة ٨٦٢هـ / ١٤٥٨م بالمنادة « بأن أحدا من الناس لا يعمر عمارة بجزيرة أروى المعروقة بالجزيرة الوسطى ولا بساحل بولاق لما رأى ضيق الطريق من كثرة العمائر والأخصاص وأمر أيضا بهدم أماكن كثيرة فهدمت فى اليوم المذكور » (٢).

ولكن التعمير ظل قائما بالجزيرة بقية العصر المملوكى (٣) حتى نهاية حكم السلطان قانصوه الغورى الذى عَمَّر حماماً كبيراً بالجزيرة (٤).

وكانت الجزيرة على أحسن ما تكون من الحركة والنشاط فى أيام

---

(١) الخطط جـ ٢ ص ١٨٦.

(٢) ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة جـ ١٦ ص ١١٨.

(٣) ابن إياس، بدائع الزهور جـ ٥ ص ٢٧٠.

(٤) كتاب وقف السلطان الغورى رقم ٨٨٢ أوقاف ص ١٣٢ - ١٣٣.

فيضان النيل، ولكن أحيانا ما يطغى الفيضان عليها فتغرق بيوتها وأخصاصها وزراعاتها فتهجر حينئذ، بالإضافة إلى عوامل أخرى تؤثر سلبيا على الجزيرة مثل الاضطرابات والصراعات السياسية والعسكرية التى تكون الجزيرة مسرحا لها (١).

وتلاشى العمران بالجزيرة أثناء الغزو العثمانى لمصر سنة ٩٢٣هـ / ١٥١٧م وهجرها سكانها وقد كانت من أجل مفترجات مصر إذ نزلت العساكر العثمانية فى بر الجزيرة على رملة البحر وصاروا يخربون بيوتها حتى لم يبق بها الا الجدر وقد نقل أصحاب الأملاك السقوف والأبواب والطيقان فخربت الجزيرة من يومئذ وانقطع الرجاء من عمارتها ثانيا(٢).

ونتيجة لما سبق ان ساد النشاط الزراعى فى الجزيرة فى العصر العثمانى فعمرت بالبساتين والحقول، وفى القرن ١٢هـ / ١٨م أقام العديد من الأمراء القصور ذات البساتين مثل الأمير عثمان كتخدا القازدو غلى(٣) والأمير عبد الرحمن كتخدا الذى أقام قصرا على مساحة فدانين ونصف وحوله بستان مساحته سبعة أفدنة (٤).

وقد وقعت الجزيرة فى خرائط الحملة الفرنسية (١٧٩٨ - ١٨٠١م) كحقول وبساتين فقط، وعادت العمارة مرة أخرى للجزيرة أيام محمد على الذى أنشأ بها فى سنة ١٢٤٦هـ / ١٨٣٠م قصرا بين المزارع فى الجهة الشمالية منها اتخذه للنزهة، وكان بالقرب من هذا القصر زمالك

---

(١) محمد الششتاوى، متنزهات القاهرة ص ١١٧.

(٢) ابن إياس، بدائع الزهور جـ ٥ ص ١٩٦، ٢٧٠.

(٣) كتاب وقف عثمان كتخدا رقم ٢٢١٥ أوقاف ص ١٥٣ - ١٥٤

(٤) كتاب وقف عبد الرحمن كتخدا رقم ٩٤٠ أوقاف.

(عشش) يصطاف فيها رجال حاشيته وعساكر حرسه فعرفت المنطقة منذ ذلك الوقت باسم الزمالك، كما بدأت القصور الفخمة تعرف طريقها للجزيرة وأصبحت من أرقى الأحياء بمصر بما انشىء بها من القصور ذات البساتين والعمارات الفاخرة والحدائق الكبيرة والأندية الرياضية والاجتماعية والفنادق والمعارض والقصور الثقافية.

ما قيل فى الجزيرة الوسطى (جزيرة أروى) وجزيرة حليمة

قال المنصورى فى جزيرة أروى والزربية

قم سيدى نسعى إلى فُرُج زهت ... ما بين املاق وبين جسور
ونرى زرابيا بها مبثوثة ... تسبيك بالولدان وبالجور

وقال آخر

إذا رحت الجزيرة كى أعدى ... أرى خلقا كخيل للطراد
فأذكر يوم حشر الخلق طرا ... وأدعو بالسلامة فى المعاد

وقال أبن أبى حجلة

امسيت فى قصب الحريرة مغرما ... وبقدِّه العسال كالولهان
عيدانه لولا حلاوة ذوقها ... شبهتها فى الشكل بالمران

ولابن قادوس فى الجزيرة

أرى سرح الجزيرة من بعيد ... كأحداق تغازل فى المغازل
كأن مجرة الحوزاء حطت ... وأثبتت المنازل فى المنازل (١)

---

(١) ابن إياس، بدائع الزهور جـ ١ ق ١ ص ٥٨.

فى جزيرة حليمة يقول الأديب إبراهيم المعمار :

جـزيـرة الـبـحـر جْـنَّـتْ بـهـا عـقـول سـلـيـمـة
لـمـا حـوت حـسـن مـغـنـى بـبـسـطـة مـسـتـقـيـمـة
وكـم يـخـوضـون فـيـهـا وكـم مـشـوا بـنـمـيـمـة
ولـم تـزل ذا احـتـمـال مـا تـلـك الا حـلـيـمـة (١)

---

(١) المقريزى، الخطط جـ ٢ ص ١٨٦ ـ ١٨٧ .

ثانيا : التحقيق والتقييم

(أ) التحقيق

تقع هذه المناظرة ضمن مجموعة من الرسائل التى تحمل رقم ١٩٤ أدب تيمور بمخطوطات دار الكتب المصرية . وعدد صفحاتها ١٨ صفحة وسطرتها ٢٥ سطرا وعدد كلمات السطر الواحد يتراوح بين ٩ إلى ١٢ كلمة وهى مكتوبة نسخ معتاد .

وهذه النسخة سيئة جدا ، ووجدت صعوبة بالغة فى قرائتها لتلفها حيث إنها تعرضت للرطوبة فطبعت الصفحات على بعضها البعض (انظر الصور) .

وقد ألف هذه المناظرة حسبما ورد فيها أبو الفتح محمد فقير الأزهرى الشهير بابن المؤذن، وقد بحثت عن ترجمة له فى كتب التراجم فلم أجد

وتاريخ تأليف هذه المناظرة ورد بها فى ختامها سنة ٧٩ ولم يذكر رقم المئات الإ إننى توصلت إلى أن المؤلف عنى سنة ٨٧٩هـ حسبما ورد بها من معلومات تؤكد هذا التاريخ .

وهذه النسخة من المناظرة نسخة وحيدة وقد بحثت فى مصورات

مخطوطات دار الكتب المصرية ومصورات معهد المخطوطات العربية عن أى نسخ أخرى لهذه المناظرة فلم أجد.

وقد صححت الأخطاء التى وقع فيها الناسخ بما يتفق مع سياق النص مع كتابة الهمزات التى بسطها الناسخ مثل غيره من النساخ إلى ياء وكتابة التاء مقفولة وقد كتبها الناسخ مفتوحة.

وعلقت على النص بالهامش، مع كتابة فهارس الأعلام والأماكن والمصطلحات فى نهاية الكتاب.

(ب) التقييم

ونقيم هذه المناظرة فنقول أن مؤلفها غير معروف ولا نعرف له غير هذه المناظرة، وأسلوبها متوسط المستوى من الناحية الفنية، ويعاب عليها التطويل فى عباراتها، وبنائها الدرامى أقل من مناظرة الجسر وبركة الرطلى، وقد عمد المؤلف إلى كتابة بعض الأشعار من تأليفه.

واستعمل الألفاظ والمصطلحات السائدة فى العصر المملوكى مثل السناجق وكوسات البحر وجواشن.

ومن ناحية الموضوع أبرز دور النيل وأهميته بالنسبة للمتنزهات وقد ذكر بعضها التى كانت تتمتع بمكانة خاصة لسكان القاهرة المملوكية مثل الخطط على النيل وهى المنشية والكوادى وقصر العينى، وبركة الفيل وبركة بطن البقرة (الأزبكية) وبركة الرطلى.

وترينا المناظرة دقة الملاحظة لمؤلفها فى عرضه لقناطر القاهرة والأماكن

على خلجانها حيث اتبع في ذكرها الترتيب الجغرافي لها من الجنوب للشمال فذكر قناطر السباع ثم بركة الفيل وقنطرة عمرشاه وقنطرة طقزدمر وآق سنقر دُباب الخرق والأمير حسين والموسكي وبركة بطن البقرة وباب القنطرة والخروبي، وهذه القناطر متتابعة على الخليج الحاكمي (الخليج الكبير).

كما ذكر بعض القناطر على الخليج الناصري وعلى خليج فم الخور مثل القنطر العسرا والمقسي على خليج فم الخور، كما ذكر التقاء الخليجين معا وذكر القناطر على مجرى الخليج بعد الإلتقاء مرتبة جغرافيا وهي قناطر الوز وبني وائل ثم ذكر خليج الزعفران ثم سد الأميرية.

وتعرض للمقاصف على الخليج والبركة، وذكر إن البيوت بالجزيرة وعلى الخليج موسمية إذ كانت تسكن وتعمر فقط في الصيف.

ثالثا النص

الدرة المنيرة فى مناظرة الجسر والجزيرة

بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين آمين

الحمد لله الفتاح. والصلاة والسلام على سيد الملاح. الحمد لله الملك البر. الذى أجرى البحر. لنفع كل فاجر وبر. وخص مصر بأعجوبة نيلها السعيد. لينبت به زرعا وحب الحصيد. وذكرها فى كتابه المبين بقوله «ادخلوا مصر أن شاء الله آمنين» (١).

أحمده حمد من غرق فى بحر فضله المبيد. وأشكره شكر من جبر كسره فلم يزل بحر شكره يزيد. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له شهادة أنجو بها من بحار الأهوال معادى. ويروى بها من نهر الكوثر قلبى الصادى. وأشهد أن سيدنا محمد عبده ورسوله الذى أنزل عليه فى كتابه المكنون «أفرأيتم الماء الذى تشربون أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون» (٢) صلى الله عليه وعلى اله وأصحابه صلاة يمتد لى بها جسرا إلى الجنان. ما أحاط البحر بجزيرة فى كل مكان.. وبعد.

يقول أبو الفتح المسمى محمد فقير يرجى الفضل من كرم المولى هو الأزهرى ابن المؤذن شهره ومن كان للتقصير ستر اسمه أولى. وبعد.

---

(١) سورة يوسف. آية ٩٩.

(٢) سورة الواقعة آية ٦٨ وآية ٦٩.

إننى لما نصبت أفكارى شركا لصيد طيور المعانى . وغصت أبحر الشعر على الدرر فأسارت منظوم الجواهر فى أجياد الغوانى . نظرت بعين سمعى فى أوجه عبارات الألسنة . ممن طاف بالبلاد ووصف من كل شيء أحسنه . فأجاد السمع والرؤية . أن يتخذ غير مصر منية . فهى جنة كل حى . وكم نشر لحديث حسنها من طى .

إذا مارمت جنة كل حى فمصر أحال نيل أو ربيع
فأنهار وأزهار وحور وولدان بمعترج ربيع

كأنما خلق الله أهلها من لطافة النسيم . وألبسهم حلاوة الألفاظ بورودهم نهر العسل الوارد عليها من جنة النعيم . كم وردت من مناهل نيلها العذب ماصفا . واتنعمت فى جنان مفترجاتها التى حوت عرفا . فلم أر كالجسر ببركته المعروفة والجزيرة (١) بقلاعها المنفردة والملفوفة . وفيهما قيل :

قد اتحدا فى الحسن وانفردا به كأنهما فى طالع السعد عمرا
قصور وولدان وحور وانهر وطيب هوا باللطف يا صاح اسكرا

قد جمعا أشتات المحاسن . وصحة النسيم العليل . فأنسيا غربة الوطن(٢) ببذل أنفسهما للنزيل . وكل منهما قلعة للهو والطرب . أو

---

(١) الحسر هو حسر أرض الطبالة الدى يمتد شمال بركة الرطلى ويتصل بينها وبين الخليج الناصرى ومحله الآن شارع الظاهر بالقاهرة، والبركة هى بركة الرطلى . (عنهما بالتفصيل انظر ماسبق ص١٢ ـ ٢٩)
أما الحريرة الوسطى وسميت بهذا الاسم لانها تقع فيما بين الروضة وبولاق وفيما بين بر القاهرة وبر الحيرة ولم يىحسر عنها الماء الابعد سنة ٧٠٠هـ / ١٣٠٠م وكانت تعرف بحزيرة أروى، وفى سنة ٧٤٧هـ / ١٣٤٦م طرح البحر (النيل) حريرة احرى شمالها سميت حريرة حليمة، ثم اتصلت الحريرتان معا وشكلتا حريرة الزمالك الحالية (انظر بالتفصيل ما سبق ص ٥٣ ـ ٥٩) .

(٢) (فانسيا عربة الوطن) هده العبارة محرفة من الناسح . واثبت هده ليستقيم المعنى .

صاغة كم انسبك بها فضة بعد ذهب . وقد اختلف فيهما ، الأحسن منهما، أو الألطف . وكثرة الأقوال فلإتحادهما فى الحسن جهل ذلك فلم يعرف . ومثلتهما عند ذلك كالخصمين واعربت عن فعل كل حرف من ذاتيك الاسمين واقمت فكرى بينهما حكما إذ أدخلتهما باب المناظرة، ولساني ترجمان يعرب ما استعجم من لسان حالهما على سبيل المحاضرة، وسميت ما ابتكرته الدرة المنيرة فى مناظرة الجسر والجزيرة . فقلت :

حدثنا ابن الحاجب قال حدثنا السدى راويا عن البحر فأجاد وما أخطأ قال: تناظر يوما الجسر المشهور والجزيرة الوسطى وذلك بعد أن زاد البحر زيادة الوفا . واحْمَرَّ لونه فحمدت كسره على ما كان فيه من الصفا .ونحر الجروف (١) بنصل تياره فاقلبها ورما ها . وتعكر (٢) بالحمرة من اختلاطه بدماها . وقلع عيون الخزان بأصابعه (٣). وعمل بذراعه فى الجروف عمل مصارع أدار خصمه إلى مصارعه . ومما قيل فى ذلك بتضمين :

وسيوف أمواج نيلنا نحرت	جروفه فهى فيه تقلب
وامتزجت بالدماء فانصبغت	والدم فى النصل شاهد عجب

---

(١) الجروف هى شقوق فى جوانب الخلجان والوديان يحفر الماء فى أسفلها .

(٢) تتكر فى الاصل.

(٣) الخران هم التجار الذين يخزنون الحبوب عند الأزمات لاحتكارها وتحقيق ارباح كبيرة وكانوا يتحينون الفرص لعلاء الأسعار فبمجرد أن يقل فيضان النيل عن منسوبه المعتاد يبدأون فى تخرين الحبوب وإخفائها . وقد عبر عن ذلك الشاعر المملوكى إبراهيم المعمار بقوله :

حزن الخزان لما أن رأى	نيلنا قد عم سهلا وجبل
ورأى الزرع عروقا أخرجت	سبلات ذات حب فاختبل
وبكى إذا رمدت مقلته	زاده الله عروقا وسبل

وافتخرت الجزيرة الوسطى بدخول الماء إليها من كل خليج. وران بسواقيها يسعى كل روض أريج. وانتشرت قلاع مراكبها المبيضة. كأنها على رأس (١) بها شطفات من فضة. ورتعت غزلانها في مسارح ظل دوحها المدود. وغنت حمائمها بين أغصانها على هز كل عود. وجوى الجو يأتي من سحب خليجها أرق أطيار. وافتخر ماء سدها الجديد بالطهارة على عتيق الخمار. وتباهت باخضرار غوطتها المنشية (٢) وغرقت الكوادى (٣) تحت ظلال سيوفها المجلية وامتد البحر بطول قصر العينى(٤) فغرق بما فيه. وامتاز الخرطوم (٥) بما حلى فيه بعد حلافيه. وانتشرت على رأس السد السلطاني (٦) سناجق الأمواج. وخفق كوسات البحر (٧) حين

---

(١) كلمتان عير مقروءتين.

(٢) المنشية هى المنطقة التى تعرف فى العصر المملوكى باسم منشية المهرانى وتقع على النيل وتشغلها الآن المنطقة التى تحد من الجنوب بميدان فم الخليج ومن الشمال بشارع الدكتور حندوسة (أى هى المنطقة المحيطة بمستشفى قصر العينى) وكانت من أجل متنزهات مصر فى العصرين المملوكى والعثمانى وذلك لوقوع الاحتفال بمهرجان وفاء النيل وكسر سد الخليج بها.

(٣) الكوادى عبارة عن أراضى متصلة بشاطئ النيل الشرقى محاطة بالماء على هيئة جزر صغيرة كانت تقع أمام مشية المهرانى، وكان الناس يتنزهون بها أيام فيضان، وقيل فيها:

مررت بشط النيل يوما فخلته	مراتع غزلان كوين فؤادى
وباحت على غصن هناك حمامة	سقاها الهوى من لوعتى وبعادى
فإن أنكروا العذال حالى وحالها	أقول هوى قد ضربى وكوادى

ابن إياس، بدائع الزهور جـ ١ ق ١ ص ٥٦.

(٤) قصر العينى، قصر عظيم مطل على النيل انشاه الأمير شهاب الدين أحمد بن العينى حفيد المؤرخ بدر الدين العينى وذلك سنة ٨٧١هـ/١٤٦٦م. وكان من أحسن المتنزهات بالقاهرة وظل يتمتع بمكانة مرموقة فى العصر العثمانى، ومحله الآن مستشفى قصر العينى.

(٥) الخرطوم هو الطرف الشمالى لجزيرة الروضة.

(٦) السد السلطانى هو السد الترابى الذى يعمل سنويا على فم الخليج الكبير اثناء السدة الشتوية ويتم افتتاحه فى احتفال مهيب عند حدوث الفيضان ووفاء النيل.

(٧) الكوسات هى صوجات نحاسية يدق باحدها على الآخر.

زمر الهوى وماج. وخيل لأهل مصر أن الروضة [١] واحدة مزت بكاس راح. وكل مركب أفردت قلعها حال طيرانها بين السماء والأرض كأنها ذات جناح. ورفا الماء كل قامة من درج البسيطة على دقيقة. ودار بها كإزار ضم ردفا لظبية رشيقة. ونادى كل محب حبيبه الموعود إن زماننا قد صفا. والليلة هذه ليلة الوفا. فانتظر العاشق لنيل المراد. وقعد لقدومه بالمرصاد. إلى أن أخبرت الشمس بقدوم الليل لكبسها مع النهار. فانصبت من الخجل بالإحمرار. وانكسرت حدة شعاعها من وجلها وسارعت للخبا بالغرب ترفل فى معصفرات حللها .كأنها خد معشوق وقبّله المحب فأبدى حمرة الخجل. أو مقلة رمدت من أجل ما فقدت من رؤية المحب ما إعتادت من الكحل. فارخى الشفق على أشعة جلها سترا رفيعا. وأقام من دونها ملك الغرب حجابا منيعا. وانتظمت بأشعته الدجا. المكوفرة بيد الرجا. واستند النور إلى الظلام والتجا. وأقبل الليل فى جيوشه الزنجية. وسناجقه الخليفتية [٢]. ترفل جيوشه فى حلل السواد كأنهم لفقد الضوء لابسين ثياب الحداد. فعن قليل ثبت على بلق بكورها وميم الأصائل [٣]. واستخدم الليل كواكب السماء فجلت له المشاعل. وانجلت دون السماء فى حليها المكلل بصفير نجمها. المرصع بجواهر كواكبها المنيرة حال نظمها. وبرز البدر عند ذلك من بين سرادقات الغمام. وانتشر علمه المذهب بيد الظلام. فالبدر وسط سما والنجوم به حفت وجواهر أمواء الزيادات كأنه زرق الديباج ملبسه مكلل وهو رايبه

---

(١) أهل مصر المقصود بها سكان مدينة مصر القديمة التى تعرف أيضا بمصر العتيقة أو مصر الفسطاط. والروضة هى جزيرة الروضة.

(٢) السناجق الخليفتية هى اعلام سوداء شعار الخلفاء العباسيين.

(٣) هكذا.

بحرات. أم إنه ملك أزرق مفارشه دارت عليه سلاف الماء بكاسات . نهر المجره وافا بالنار له من كل لؤلؤة تزهر كالمشكاة. وهو المتوج إكليلا بجبهته لما غدا راكبا دهم الدجنات [1] يالها من ليلة حلت الشموس والبدور فيها منازل المراكب. فأقلعت فى الجو بكل راكب. وكأنما الكواكب فى الليل وجوه ذات الخدور. وقد أسبلن لنا فى النهور الشعور. وكأنما استبدت الكيمياء من شعاع البدر على البحر العجاج. إذ ألقى عليه من القمر ما احاله زئبقا رجراج. ودار بسويقته الغربية باب عقرب وعقاب. فاكسبه صبغا ولكن غير ثابت لشده الاضطراب.

والقطب ملقى يحاكى سفرة نصبت	لمشرب راح كروح وقت اسحار
من حولها أنجم الكاسات مشرقة	تسرى لتغرب فى الواءه أقمار

إلى أن مد القمر على البحر شريطا من ذهب عند الأفول. يقصر فى يد مرتعش تارة من الهز ويطول. وكأن البدر عند غروبه بوتقة خرجت من النار. ومالت فسألت الذائب فيها على الماء فى النضار. فما اسرع انقضاء تلك الليلة بمن عانق فيها الملاح. وكذا ليالى الوفا تهتز فيها العشاء بالصباح

يالـيـلـة كـأن مـجـنـونـا مـؤذنـهـا	قد ظن ان عشاها الصبح فانطلقا
فـاقـلـق الـفـجـر من نـوم وأوهـجـه	فـشـق ثـوبـا لـغـيـظ مـنـه وانـفـلـقـا

فالتقطت يد الغرب درر النجوم المنتثره. وقطف جانى الصبح رأس الليل المسفره. وهبت نسيم الصبا تبشر بورود الصباح. ممنطقة من الطل

---

(١) دهمَ ـ دُهْمَةً : اسودّ فهو أدهم. وهى دهماء (ج) دُهْم، (دَجَم) الليل ـ دجما ، ودحمة : أظلم (الدحمة) : الظلمة (ج) دُجم.

بالطف وشاح . وجاء الصبح يخطر فى حلته الدكناء . فتزينت له السماء بجناح كل فاختة (١) حسناء .

ولقد ترنم كل شاد مطرب — جُدْ بالطلا يا ساقى الصهباء
واجعل صبوحك والعبوق بروضته — منها الربا معنبر الارجاء
هذا صباحك قد كست فواخته — الأسحار حسن الحلة الدكناء
والطير غنى فوق عود خلته — صبا شكى صد الحبيب الاناء
والروض قد نثرت على أغصانه — عقد العناق لآلئ الانداء
فاغنم صبوحك وارد صرف الطلا — لانظف مؤر سنانها بالماء
ومن لم تدر فى الصبح كاسات له — لايذكر الصهباء حال مساء
هذان احزم لذه مس نشاه — تفدى بأرواح من السد ماء

ثم برزت عروس النهار من مشرق خدرها . تكفكف عن عينها ليل شعرها . وتغازل عيون النور . بمقلة نفسها بالنعاس اكسبها الفتور .

والشمس قد كست المياه ملابسا — منسوحة بيد الاشعة من ذهب
فكأنما تلك المياه جواشن — صقلت بعد دلك فى لهب (٢)

وكأن البحر تحف قلاعه فى ذلك الصباح سماء حجبتها أجنحة بيض الحمام . وكأن مراكبه خيول طردها النسيم وله بيده زمام . ونادى ابن أبى الرداد (٣) سبحان من هذا فى خرائن ملكه فهو الواحد . وبشر متولى الأمر

---

(١) الفاختة نوع من الحمام المطوق ، إذا مشى توسع فى مشيه وباعد بين جناحيه وابطيه وتمايل (ج) فواخت .

(٢) جواشن : دروع ، صقلت : جليت .

(٣) ابن أبى الرداد ، هو أول مسلم تولى قياس منسوب ماء النيل عندما انشا الخليفة العباسى المتوكل على الله مقياس النيل الحالى (اثر رقم ٧٩) بآخر جزيرة الروضة سنة ٢٤٧ هـ واستمر ابناؤه وأحفاده يتوارثون مهمة قياس منسوب ماء النيل فى مقياس الروضة حتى نهاية القرن الماضى .

من صاحب الأمر بالوفا فَخَرٌّ لله ساجداً لتزايد الفرح وتعاظم الطرب. وعادت المراكب بقلاع ملفوفة كأجام القصب. وحصل الكاسر على المكسور. وكسر السدان فياله من يوم مشهور. فأما السد السلطانى جبرت بكسره القلوب. وخرج ماؤه كالمنصب من ضيق الأنبوب. مسرعا كالسهم من شدة المرور. فعجبنا من قوة ذلك المكسور. وألقى نفسه على رأسه من الأوج إلى الحضيض. ورمى الناس من إمتداده طولا وعرضا فى الطويل العريض.

جرى النيل حال الكسر كالسهم فاعجبوا — لما قد جرى مع ان ذا فعل مكسور

ومذ مد سيف الخصب للمحل خلته — على ضرب عنق الجدب كان بماخور

فغمر السباع (١) خلفه بعد الوثبة على عجزها. وملأ بطن بركة الفيل(٢) من أمواجه سيوفا لأنهار عزها. وحرك النفوس لرؤية سوق خيله تحت عمر شاه (٣). وقنطر بقزدمر (٤) إذ ملأ قلبه خوفا من شدة جريه

---

(١) السباع، المقصود بها قناطر السباع التى كانت على الخليج الكبير (الخليج المصرى) وموقعها الآن ميدان السيدة زينب بالقاهرة، وأول من بناها السلطان الظاهر بيبرس ووضع عليها سباعا حجرية تمثل رنكه (شعاره) الخاص به ثم هدمها السلطان الناصر محمد بن قلاوون وأقام أخرى مكانها سنة ٧٣٥هـ/ ١٣٣٤م.

(٢) بركة الفيل هى احدى برك القاهرة الهامة فى العصر المملوكى ومن أحسن متنزهاتها ويمثل موقعها الآن حى بركة الفيل بالسيدة زينب القاهرة. (انظر عنها بالتفصيل : محمد الششتاوى، متنزهات القاهرة ص ١٤٦ - ١٨٨ .

(٣) عمرشاه المقصود قنطرة عمر شاه على الخليج الكبير والتى كانت تقع فى نقطة على شارع بورسعيد (شارع الخليج المصرى سابقا) الذى حل محل الخليج عند ردمه سنة ١٨٩٨م أمام حارة عمارشة (تحريف عمر شاه) فى مواجهة جامع تمراز الأحمدى (اثر رقم ٢١٦) شمال ميدان السيدة زينب بالقاهرة. وقد انشاها الأمير عمر شاه فى سنة ٧٤٥هـ / ١٣٤٤م.

(٤) قزدمر المقصود قنطرة طقزدمر على الخليج والتى عرفت أيضا بقنطرة درب الجماميز ويمثل موقعها الآن نقطة على شارع بورسعيد (شارع الخليج المصرى) تجاه مدخل شارع قنطرة درب الجماميز الموصل إلى حارتى الحنفى والهيائم جنوبى شارع مجلس الشعب بحوالى ٢٠ مترا. وقد انشاها الأمير طقزدمر سنة ٧٣٠هـ/ ١٣٣٠م لتسهل له العبور إلى حكره بالبر الغربى للخليج.

وحشاه. وخرجت اجناب سنقر (١) أرحام أمواجه بالمخالب. وسد من باب الخرق (٢) تياره الطرق والجوانب. وركب لطرده الأمير حسين (٣) في الخيل كل أحمر كالسيل، ونادت أمواجه سني موسكى (٤) الحديد تعرض في بطن البقرة (٥) فهذا يوم عيد. وادخلي من باب القنطرة (٦)

---

(١) سنقر المقصود قنطرة آق سنقر على الخليج ومكانها اليوم على شارع بورسعيد (الخليج) تجاه مدخل شارع إسماعيل باشا أبو جبل (شارع درب الحجر سابقا) وقد انشاها الامير آق سنقر سنة ٧٢٥هـ/ ١٣٢٥م. ليتوصل منها إلى جامعه وحكره على البركة الناصرية بسويقة السباعين بالقاهرة.

(٢) باب الخرق المقصود به قنطرة باب الخرق التى كانت تقع على الخليج ومكانها الآن بشارع بورسعيد (الخليج المصرى سابقا) مواجهة لأول شارع تحت الربع بميدان باب الحلق. انشأها الملك الصالح نجم الدين أيوب سنة ٦٣٩هـ/ ١٢٤١م ليمر عليها إلى الميدان السلطانى الذى انشاه بارض اللوق، وباب الخرق نفسه أحد أبواب سور القاهرة الغربى موقعه الآن بجوار محكمة جنوب القاهرة الابتدائية، وكلمة الحلق تحريف للخرق.

(٣) الأمير حسين مقصود به قنطرة الأمير حسين على الخليج ومكانها اليوم بشارع بورسعيد (الخليج المصرى سابقا) تجاه مدخل حارة الأمير حسين المواجهة لشارع الاستئناف شمال محكمة جنوب القاهرة الابتدائية (محكمة الاستئناف سابقا)، وقد أنشأها الأمير حسين فى سنة ٧١٩هـ / ١٣١٩م ليتوصل منها إلى حكره جامعه بالمناصره (اثر رقم ٢٣٣).

(٤) موسكى المقصود قنطرة الموسكى على الخليج ويمثل موقعها الآن نقطة فى شارع بورسعيد (الخليج) مواجهة لشارع الموسكى. وأنشأها الأمير عز الدين موسك المتوفى بدمشق فى شعبان سنة ٥٨٤هـ.

(٥) بطن البقرة هى بركة بطن البقرة التى عرفت ببركة الأزبكية نسبة إلى الأمير ازبك من ططخ الأتابكى الذى اعاد حفرها وتعميرها وانشاء المنشآت الجليلة حولها فى الفترة من ٨٨٠ - ٨٨٩هـ (١٤٧٦ - ١٤٨٤م) ومكانها الآن حديقة الأزبكية بمنطقة العتبة الخضراء بالقاهرة.

(انظر عنها بالتفصيل : محمد الششتاوى / متنزهات القاهرة ص ٢٠٩ - ٢٣٧).

(٦) باب القنطرة المقصود به قنطرة باب القنطرة على الخليج ويمثل موقعها الآن نقطة على شارع بورسعيد (الخليج المصرى) أمام مدخل شارع أمير الجيوش الجوانى (شارع مرجوش)، وقد سميت بهذا الاسم لأنها تقع أمام باب القنطرة وعلى الرغم إن الباب سابق فى انشائه لإنشائها إلا انه تسمى باسمها فيما بعد. وهذه ثانى قنطرة عملت على الخليج بعد قنطرة عبد العزيز بن مروان وقد أنشأها جوهر الصقلى سنة ٣٦٢هـ/ ٩٧٣م ليعبر إلى البر الغربى ليصل إلى المقس وأرض الطبالة اثناء استعداده لرد غزو القرامطة خارج القاهرة.

بعد ان تقبلى الأعتاب. واجلبى بذاك الباب الصحيح قلوب الأحباب. وأحملى من المتجر للحزوبى (١) الافا من السكر. واظهرى اثره ربيع إذ هديرك فى خليجه صفر.

كل هذا بعد أن كسر السد الثانى (٢) .فى ذلك اليوم السلطانى. فخرج ماؤه كالسهم من الوتر. أو كلمح البرق إذا بدر. كساع مليح قال فيه من يهواه سبحان من اجراه ما احلاه. سل سيفا وقد سعى نحو جدب طالبا قتله فما أجرأه. ثم أمسى محدثا عن ربيع كل معنى زها فما أرواه. أظهر الله به لأهل اليمن واليسرا .حين علاتياره أسفل القنطرة العسرا(٣). وحرر المقسى (٤) من ترادف أمواجه. وفاتر حسانه. وجرد الناصرى (٥) سيف تياره من قرابه .وتسلطن الجسر فوقف الحاجب (٦) ببابه. وقبل له

(١) الحزوبى المقصود به قنطرة الحزوبى على الخليج ويمثل موقعها الآن نقطة على شارع بورسعيد (الخليج) مواجهة لمدخل شارع سكة العجالة. ومن المرجح أن منشئها السلطان صلاح الدين الأيوبى على يد وزيره بهاء الدين قراقوش حين مد سور القاهرة الشمالى فى سنة ٥٦٩ هـ / ١١٧٣م إلى المقس.

(٢) السد الثانى هو السد الذى كان على فم الخليج الناصرى.

(٣) القنطرة العسرا هى قنطرة الكتبة على الخليج الناصرى ويمثل موقعها الآن نقطة تقاطع شارع طلعت حرب (سليمان باشا سابقا) مع شارع ٢٦ يوليو (شارع فؤاد باشا) وقد أنشأها القاضى شمس الدين عبد الله بن أبى سعيد الشهير بعبريال ناظر الدولة أيام الناصر محمد بن قلاوون سنة ٧٢٥هـ/ ١٣٢٥م، ثم عرفت فى العصر العثمانى باسم قنطرة المغربى.

(٤) المقس المقصود به قنطرة المقسى على خليج فم الخور ويمثل موقعها الآن نقطة تقابل شارع رمسيس مع شارع ٢٦ يوليو (فؤاد) مواجهة لقنطرة الكتبة وقد أنشاها الوزير الصاحب شمس الدين أبو الفرج عبد الله المقسى فى أيام الملك الأشرف شعبان بن حسين (٧٧٨ - ٧٨٣هـ /١٣٧٦- ١٣٨١ م).

(٥) الناصرى هو الخليج الناصرى الذى حفره الناصر محمد بن قلاوون سنة ٧٢٥هـ (انظر ما سبق ص١٢).

(٦) الحاجب اشارة إلى الأمير سيف الدين بكتمر الحاجب الذى كان يجرى فى اقطاعه بركة الرطلى والجسر من ضمن أرض الطبالة، والمقصود هنا قنطرة الحاجب على الخليج الناصرى ويمثل موقعها الآن نقطة فى شارع الظاهر الذى حل محل الخليج الناصرى فى مواجهة مدخل شارع البكرية بحى الظاهر بالقاهرة وقد انشاها الأمير بكتمر الحاجب سنة ٧٢٥ هـ / ١٣٢٥م.

الأرض الماء المسكوب فخلع عليه من الظل الممدود أحسن ثيابه. وسقيت أصول جماميزه فانعقدت على أعمدة أغصانها قبة من السندس الأخضر. أو تاج على رأس خرطومه من زمرد رصع من الثمر بياقوت أحمر. وقبلّ خرطومه فم البركة [١]. فرشفت منه أحلى رضاب. ورويت مما وردته بأعذب شراب. وتباهى خرطومه بخمر رضا به الأحمر. تحت شاربه الأخضر. وصار وسط الماء ككثيب تكون من عنبر. وكأنما تلك المقاصف[٢] مراتع الغزلان أو غوطة روضة أنبتت قضبانا من بان.

مقاصف أحكمت للقصف ساحتها	بها المسرات حنت فهى حانات
شراب أدنانها يشفى العليل ومن	نسيمها يعترى الصاحين سكرات

وكأن بركته المعروفة [٣] التى هى بالمحاسن محفوفة دون امتلاء بالراح. أو سماء زينت بكواكب الوجوه الصباح. وقيل فى ذلك.

سما ترى فيها القصور منازل	يحل بها بدر وشمس وكوكب
ومسترقات السمع منها مراكب	وفى الليل جرم النور فى الماء اشهب

أهى فلك عليه المنازل تدار. أم مرآة للسما نجومها باللجين يد البدر والتبر شمس النهار. وكأن جزيرة المهتار [٤] كثيب تكون من مسك ودار به نهر من السلسبيل [٥] أو خال أسود تبدى فى جوهر خد صقيل [٦]

---

(١) فم البركة اى فم بركة الحاجب المعروفة ببركة الرطلى.

(٢) المقاصف هى أماكن الترفيه وتناول الطعام والشراب. والتى كانت منتشرة على ضفاف الخلجان والبرك والحرر بالقاهرة. (٣) هى بركة الرطلى.

(٤) جزيرة المهتار احدى الجزر الصغيرة بالنيل وكانت تقع شمال جزيرة الزمالك.

(٥) السلسبيل فى اللغة هو الشراب السهل المرور فى الحلق لعذوبته، وهى الخمر واسم عين فى الجنة أو وصف لكل عين عذبة سريعة الجريان (ج) سلاسب وسلاسيب.

(٦) الصقيل ؛ المجلو. يقال سيف صقيل ومعدن صقيل (ج) صقال.

هذا والماء يسحب لا يخشى حاجبا ولا بواب. وقطع ذيل التمساح (١) مذ خاص للموت في معارضته عباب. وتلا ما يليه من الخلجان. «مرج البحرين يلتقيان». فالتقى في ذلك الخليج الأخ باخيه (٢). فاعتنقا لبعد السفر وقبلٌ كلاهما ثغر من يليه. وأدرك اللاحق السابق واتحدا في الطراد. وساقتهما يد القدرة العظمى لرى البلاد ونفع العباد. فوردت من سلسالها (٣) القنطرة الجديدة (٤) ما هو ألذ من عتيق الراح. وغرق فيهما قناطر الوز (٥) والجناح. ونزلت قبائل سعد ببنى وائل (٦) ولبس خليج الزعفران (٧) للفرح بتلك القبائل. واركز الملكان على سد

---

(١) ذيل التسماح هو مكان كان يقع بجوار قنطرة الحاجب به مقاصف لجلوس الناس للفرجة زمن النيل فيجتمع فيه يومى الجمعة والسبت مالا يحصى عددا.
انظر: ابن أبي السرور البكرى، النزهة الزهية في ذكر ولاة مصر والقاهرة المعزية (مخطوط بدار الكتب برقم ٢٢٦٦ تاريخ) ورقة ٧٠.

(٢) التقاء الخليج الناصرى بالخليج الكبير يمثله الآن نقطة التقاء شارع الظاهر بشارع بورسعيد (شارع الخليج المصرى).

(٣) السلسال في اللغة هو الماء العذب الصافى السلس السهل، إذا شرب تسلسل في الحلق.

(٤) القنطرة الجديدة كانت تقع على الخليج الكبير ويمثل مكانها الآن نقطة التقاء شارع الظاهر بشارع بورسعيد (شارع الخليج المصرى) وقد أنشأها الملك الناصر محمد بن قلاوون سنة ٧٢٥هـ / ١٣٢٥م عندما انتهى من حفر الخليج الناصرى الذى كان يصب في الخليج الكبير بجوار تلك القنطرة.

(٥) قناطر الوز كانت تقع على الخليج الكبير ويمثل موقعها الآن نقطة على شارع بورسعيد (شارع بورسعيد المصرى) تجاه حارة قنطرة الظاهر، وقد أنشأها الملك الناصر محمد بن قلاوون سنة ٧٢٥هـ على يد الأمير قدادار والى القاهرة آنذاك وكانت من أحسن متنزهات القاهرة، وكانت تصل بين الحسينية شرقا إلى أرض البعل التى محلها الآن الشرابية ومهمشا غربا.

(٦) بنى وائل مقصود به قناطر بنى وائل على الخليج الكبير والتى تقع في الزاوية الحمراء في النقطة التى يمثلها اليوم مدخل الزاوية الحمراء من شارع بورسعيد (الخليج المصرى سابقا) وقد أنشأها الناصر محمد بن قلاوون سنة ٧٢٥هـ وعرفت ببنى وائل نسبة إلى إحدى قبائل العربان التى كانت بمصر بحدود مدينة القاهرة في العصر المملوكى وكانت منازلهم شرقى الخليج. ولهذا سمى الحى الذى كانوا به حى الوايلى (الوايلية) نسبة لهم.

(٧) خليج الزعفران كان يتفرع من الخليج الكبير من عند جامع الظاهر ويسير باتجاه الريداية (العباسية)=

الأميرية (١) فضمتهما لصدره. وامتد تواضعها من يديهما امتداد من إتكأ لنحره. فلم تتركا من الخلجان والبرك مفتونا بزيارتهما ولا مفتونة. وعم جودهما من ذلك الجم الفقير العاقلة والمجنونة (٢) وتراجعت المياه وقد جعد النسيم متونها وفرك الحائك نسيج من الحرير الأحمر أرفع شبك فيا لله من بلدة فى النيل. وما انزه مفترجاتها تحت ظل غصون دوحها الظليل

= ويمثل مسار الخليج شارع العباسية الآن ويستمر مساره شمالا فى شارع الخليفة المأمون ويخترق احياء منشية البكرى وسراى القبة والزيتون والمطرية حيث كان يروى أرضها وربما كان منتهيا هناك أو متصلا بخليج آخر ينتهى إلى الخليج الكبير أو إلى بركة الحاج.

(١) سد الأميرية كان يقع بجوار قنطرة الأميرية التى يمثل موقعها الآن نقطة على شارع بورسعيد فى تقاطعه مع شارع السواح، وكانت آخر القناطر على الخليج من ضواحى القاهرة فى الأميرية فيما بينها وبين المطرية، وقد بنيت أيام الناصر محمد بن قلاوون سنة ٧٢٥هـ / ١٣٢٥م على يد قدادار والى القاهرة وكان يتم عندها سد الخليج وكان يفتح فى يوم النوروز وهو أول السنة القبطية ويقوم بفتحه والى القاهرة ليروى الأراضى على جانبيه. ويوم النيروز هو أول شهر توت فى السنة القبطية الموافق ٢٣ أغسطس الميلادى.

(٢) المجنونة . كان عبارة عن قبو (سرب) يتصل بالخليج الكبير ليوصل الماء إلى بركة الفيل كان أصله قنطرة تعرف بالمجنونة كانت تهدمت زمن المقريزى (ت ٨٤٥هـ) وذكر انه تبقى منها بقية عقد ناحية الخليج كان قد عقده الأمير الطيبرس وبنى فوقه منترها، ومن الطريف ان اسم قنطرة المجنونة يرتبط باسم بانيها الأمير الطيبرس (ت ٧٠٨هـ / ١٣٠٨م) حيث كان الماء يندفع من الخليج ليملأ البركة المنخفضة بسرعة مجنونة فسموا القنطرة المجنونة وكان الأمير الطيبرس هذا يعتريه الجنون وقد تلقب بالمجنون فجاء هذا الارتباط، وكان لهذا الأمير محبة زائدة للفقراء والصوفية ولهذا بنى هذه القنطرة لأجل الشيخ شهاب الدين العابر ولفقرائه ليصلوا إلى زاويتهم بالبر العربى للخليج وقد نظم الشعراء فى ذلك الموضوع أبياتا يتفكهون بها منها قول الشاعر علم الدين بن الصاحب :

وقد عجبت من الطبرس وصحبه   وعقولهم بعقوده مفتونة
عقدوا عقودا لاتصح لانهم   عقدوا لمجنون على مجنونة

وموقع قنطرة المجنونة الآن بشارع بورسعيد (الخليج المصرى سابقا) فى نقطة جنوب جامع غيطاس بك وكانت هذه القنطرة (السرب) موجودة حتى آخر القرن الماضى حيث ذكر على باشا مبارك ان الماء كان يصل منها إلى جنايى المنازل والقصور أمامها وإلى البيجمون الباقى من بركة الفيل.

فتحت أصداف أفواه أهلها بيد مفترجاتها . فالقت ما اكنزته من در بحورها حين وردت وعذب فراتها . ومما قيل:

أسكان مصر ان حقا ثغوركم ... لنيلكم أصداف مافيه من درر
أفادكم فى اللفظ ماروته الذى ... يحل بها ما حاز فى جمل السحر

فلفظ شعرائها هو الجوهر المكتسب من ماء بحرها الزلال. ونكت عوامها مما حوى من رقيق الآل . فهم ثغور الواردين لنيل مصرهم أصداف در السلسبيل . إذا كان الأجْاج (١) الدر فيه فلم هو فى الزلال مستحيل . أسمت مصر للشاعر المجيد بيت القصيد . وأصبح رباها موشحا بذلك البحر المديد . كأن منعطفات نيلها خلاخل لسيقان عمد قصوره القوائم . أو أساور لمعاصم الدعائم . أو ذوب عقيق صاغته يد الزيادة من المكارم . لأصابع بخيل شاطئه خواتم . وقيل:

إذا قيل فى الشام مدحًا جنة خلقت ... وصح هذا وسلمنا لإثبات
فمصرنا روضة فى النيل قد جمعت ... فى كل مفترج الآف جنات

خصوصا فى مثل عامنا هذا الذى روى نيله عن الطوفان كل الطرق . وحدث عن ربيع بإسناده للنطق . وسما بأرضه فاقل به جناح النسر الطائر . وعمل سيوف أمواجه فى أرجائه حتى أقلب الجسور على الجزائر . وفى ذلك قيل:

كل للنيل ثار أو الجروف به ... مطلوبة أمها سلطان تيار
تصادمت ظهرت واستحكمت نحرت ... فاحمر تيارها من فتك بتار

(١) الاجاج ما يلدغ الفم بمرارته أو ملوحته .

كأن مراكبه طيور قاصدات نهر المجرة للورود . أو مداخن ترقبها أيدى الأمواج لصون قناديل الكواكب ذات الوقود . إذا أقلعت ليلا براكبها فى ذلك البحر المديد . ورام إن تناول الثريا بيده ما كان ذلك عنه ببعيد . كان السابح فيه قد اتخذ إلى السما سلما .

كـأنمـا مـصـر بـه جـنـة	قـطـوفـهـا مـزهـرة دانـيـة
ووجـنـة الـورد كـلـطـم الـنـدا	فـى روضـهـا مـحـمـرة دامـيـة

فدفقت أمواؤها . وتأنقت بالخضرة أرجاؤها . وغنت طيورها . وتفتحت زهورها . وفاح عبيرها . وتزخرفت قصورها . وتسورت بغدرانها وتدملجت بخلجانها .ولما تشنقت بالقصور . وتمنطقت بالبحور . وحوت كل مفترج تكتحل برؤيته الأعين . وتنطلق بوصفه الألسن . باهى الجسر بما أعطى من اللطافة ومد باعه. فانشده لسان الوقت يد الخلافة فتقدم وهو أحق بالتقديم للتذكير . وإن كان للجزيرة فضل السبق فالتأنيث أوجب لها التأخير . فقال :

الحمد لله الذى امدنى بفضله جسرا لأهل السعادة . وأشهدهم محاسنى فإنى كالجنة سكنا لأهل الشهادة ، وأشهد ان لا إله الإ الله وحده لاشريك له شهادة من أمده الله بفضله العميم . وأشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله النبى الكريم . صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه الأزاهر . ما حفظت فى النيل الجسور وغرقت الجزائر . وبعد . .

فإن الله جعلنى ملك المفترجات بهذا الأقليم . وأوقف الحاجب ببابى[١] يمنع عنى اللئيم ويأذن فى الدخول لكل نديم كريم [٢] . كأننى

---

(١) (ببالى) فى الاصل.

(٢) (كرم) فى الأصل.

جنة فجرت فيها الأنهار. أو روضة شب نسيمها فغنى بلبلها على عود وطار. أنسى الغريب حب الأوطان. وأنشيء للبسط من المحاسن أفنان. كيف لا وأنا ملك تراه النواظر. الحاكم على أحسن البرك المستخدمة في جوارها الطف الجزائر. ثم أنشد يقول:

جعلت مليك مفترجات مصر ... لذا أوقفت لى بالباب حاجب
وحين تقاسم الفرُج المعانى ... جعلت الحسن عليَّ قسما ونايب

فلما سمعت الجزيرة ما قاله الجسر من الكلام. وما ابداه من معنى النثر والنظام. ابتلت خدودها بالدموع من الحنق. وقالت مدح الجسر نفسه وما صدق. ثم اخفت حدة الشباب. وأظهرت خد وبات الحجاب (١). وقالت الحمد لله الذى أخرجنى من البحر كالدرة المنيرة. وخصنى بأهل العلم والأدب وناهيكم بعلماء الجزيرة. وأشهد أن لا اله إلا الله وحده لا شريك له شهادة يطهر بها في بحار الإيمان قلبى. وأشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله ينقذنى من بحار كربى. صلى الله عليه وسلم وعلى آله وآصحابه البدور. ما اتصلت الماء بالجزائر وانقطعت الجسور..

وبعد .. فإن الله خصنى بأعظم نعمة. إذ غمسنى فى ماء الرحمة. عجنت طينتى بماء السلسبيل. وأشفى طيب نسيمى العليل. وقامت قصورى في الماء. وكادت أن تلحق بالسماء. فأنا جنة الناظر وبهجة الخاطر. وأنا روضة هذا الإقليم الجديدة. والمنشية القريبة العهد (٢) فما أنا من البحر ببعيدة. ثم انشدت تقول:

---

(١) وأظهرت خد وبات الحجاب هذه العبارة محرفة من الناسخ، وأثبت هذه ليستقيم المعنى.

(٢) نشأت الجزيرة وظهرت للوجود بعد سنة ٧٠٠هـ.

قال : فلما سمع الجسر ما قالته الجزيرة اعتل نسيمه . وتدلى خرطومه . وقال :أصبحت ذات الخدور . تطاول الملوك بالقصور . إن من افتخر بقصوره كفاه ذلك من عار . ومن استطال بفجوره قصر الندم من لسانه أشبار . أتذكرين بيوتك المجبول طينها بالساس . المبنية على غير أساس . ففى كل عام يقصر منها ما طال . ويقصف غصونا بوقوعه على النساء والرجال . ومادامت عتباتك تطرس بالماء الهارب . فيخرب منك فى كل عام جانب .فاحفظى لسانك الأبكم . أتتشبهين بالروضة وقد دار بك ما دار بها من [1] هدم كل دار . ولو رصدك عاما لقلع منك الآثار . أتقولين أنا جنة الناظر بمقاصير مقاصفك الراتعة فيها الغزلان . أم بقبة الزمرد المعلق فيها قناديل المرجان . هل يعرف بمقاصير الجنان غير مقاصيفى البهية . أم بقبة الزبرجد المرصع بالمرجان غير جماميزى [2] السندسية . أم بالغرف المزخرفة غير ما حويت من بيوت . بنيت على أمكن أساس أوصلها بأعظم ثبوت . أنا ملك المفترجات قريبها والبعيد . وتحت نظرى مائة قصر مشيد . عقدتهم لحفظ جوانب بركتى وقاية . ولى عليهم عموم النظر والولاية . فاحفظى لسانك واعرفى قدرك . وإلا أمرات [3] أن يدوم فى حجر الامواء حجرك ثم انشد يقول :

أيا جزيرة كفى القول حسبك ما	أنت به من عظيم الماء قصوره
لو لم تكونى على غير الطريق لما	فى حجرة الماء صرتى اليوم محجوره

فلما سمعت الجزيرة ما قاله الجسر من الكلام . لطمت بيد الماء خدها . وقطعت بنصل زيادته حدها .وقالت . أيها الجسر الحقير . أتناظرنى

(١) (من) اضفتها ليستقيم المعنى . (٢) أشجار الجمير .

(٣) وإلا أمرت = وأمر فى الأصل ، فاثبت الاولى ليستقيم المعنى .

وخلفى البحر الكبير. ألك غير مجراة ماؤها لرقته كالمريض. إن شبهتها بخليجى أوقعك فى الطويل العريض. أنا الذى أرضعتك ثديى حتى رويت. وسقيتك من ماء سدى ماء الحياة فعشت بعد أن كنت فنيت. ولى فضل السبق المشهور. وهو لعمرى غير منكور. مع أننى أنا المتأخرة عنك بأيام. ويزيدنى ذلك عنك فى الإكرام. وبعد ذلك يظهر لى قرط وكتان. تقصد رؤيته من كل مكان. فبماذا تناظرنى وأنت قصير المدة. وبأى لسان تستطيل يا قليل المودة . ثم أنشدت تقول:

لنا فضل سبق ثم تأخير مدة فتسمو بماذا ياقليل المودة
ستذهب عن قرب كأنك لم تكن وبعدك ياذا الجسر أحظى بمدة

فلما سمع الجسر ما قالته الجزيرة. رأى فى نفسه فرط الذكاء فانتصب لرد الجواب وما اتكأ وقال: يا مقطعة الأوداج. ويا عدة ملعب لصغار الأمواج. لولا عظيم خسفك الذى أنت منطوية عليه. لما تركت البحر الكبير خلفك ولم تلتفتى إليه. أتذكرين رقة خليجى الساحب من تياره لمن ناواه مرهف. واتعرضى بعرضك فأنت لا شك من جميع الخلجان أعرض وأخسف. مع انك لو لم تكونى لخدمتى جارية . لما ارتضيك لى ساقية. فقولك لى سقيتك فيه رفع لمقامى. وخفض لقدرك المنتصب مقامى. وما السبق يفضل به السابق الحسيس. لو كان ذلك ما خلق الله قبل آدم إبليس. مع انك إن عددت نفسك من السابقين بدخول الماء. فنحن من السابقين بحلول البناء.

ولو سلمنا ما ادعاه لسانك فى حقنا من قصر المدة. لازددنا بذلك شرفا علي ما انكرته من المودة. فإن ليالينا بالسرور منيرة. وأيام السرور

قصيرة. هذا مع أن لى بركة شتاؤها كالمصيف. وربيعها كالخريف. نسيمها العليل ضامن الصحة. ولا ينقطع منها أبدا فرحة. إذا اخضرت جوانبها حكت عذار الحبيب. وإذا هب نسيمها كان لكل داء طبيب. يطيب بها الصبوح والغبوق. ولا يملها الناظر فى غروب وشروق. تذكر سكانى عهودى القديمة. وهى لى بعدى نديمة كريمة. ويجلسهم حاجبى من حدائقه على الاحداق. ويحجبهم من قصب السكر بالعسالة الرشاق. ويبسط لهم بسطا من السندس الأخضر. ويريهم من أرضه عيون الأعداء كيف تتفجر. ويعطف عليهم لطيف نسيمى فيسكرون. وينشر لهم طى حديثى القديم فيشكرون. فلا سلانى أبدا نديمى. ولا نقض قط رسومى. فإن افتخرت بالقرط والكتان. فهما من متعلقات النسوان. أتناظرينى ولى حاجب يحجبنى برماح من قصب السكر. مر كموزه فى أرض من غير عنبر. وسيوف من الغدران. تغمد فى شقائق النعمان. ويفرش أمامى فرشا من السندس وخيام. وينشر تجاهى زهورا مفتحة الأكمام. وملخص القضية. أنا ملك المفترجات النيلية.

إذا قيل عنى مدتى قد تقاصرت ... فماضرنى هذا وعهدى يجدد
ومع ذلك لم تجفوا الموالى مودتى ... ولى حسنات لم تزل تتعدد

فلما سمعت الجزيرة ما قاله الجسر من الكلام. وماقطع به حجتها من النثر والنظام. أو سقت معاديها [1] لمعاندة معاديها. وقالت: يا جسر تجاسرت علىّ فى الخطاب. وأخطات فى هذا الأطناب. أى محاسن لك تعدد وببابك جنهم بلا خلاف. لأن الزبانية تسحب المجرمين فيه للتاف.

---

(١) أوسقت معاديها: جمعت وضمت معدياتها.

ولا يدخل أحد إليك الإ إن تحنى. وفى ذلك إشارة إلى الخنا (١). ولـولا ما وراءك وقدامك. لنكس الدهر أعلامك. وهذا دليل على حط قدرك والانهمال. وتلاشى أمرك على كل حال. والعقل يشهد إننى مليكة كل خليج. وعين كل مفترج بهيج. ثم أنشد يقول.

إن كنت تجهل يا جسر المقام فهذا ... اسمى وحسنى مشهور ومشهود
إنى كجنة عدن فى تزخرفها ... مائى وظلى مسكوب وممدود

فلما سمع الجسر ما قالته الجزيرة فتحت له خوخة (٢) للجدال فاستطال. وقال: ياسلبية الذوق. ومن طلعت عند النيل من فوق. لو لم أكن مطلب الأفراح. لما راحت على بابى الأرواح. وما انحنا الدخول الإ تقبيلا وحرمة للحاجب الواقف ببابى. فلو صدقت إنك مليكة الخلجان الساحبة. فأنت محتاجة إلى نائبة. وإن صح إنك أعين المفترجات باتفاق كل ذى خل وصاحب. فببابى من يحط قدرك عنه والعين لا تعلو على الحاجب. مع إننى جالى صدا القلوب. وجامع شمل المحب بالمحبوب. بنيت للقصف مقاصفى الموصوفة. وركبت للبسط مراكبى اللطيفة. ثم أنشد يقول:

---

(١) الخا: الفحش فى الكلام.

(٢) الخوخة فى اللغة كوة فى البيت تؤدى إليه الضوء، وباب صغير وسط باب كبير.
ويفهم أيضا من كلام المقريزى عن خوخ القاهرة (الخطط جـ ٢ ص ٤٥ - ٤٧) انها تطلق أيضا على أبواب بعض الأزقة والعطوف الصغيرة أو على الأزقة نفسها.
وجدير بالذكر إن نقول ان أبواب الحصون والأسوار والخانات والقصور فى العصر الوسيط مصر وغيرها كانت ضخمة مصفحة بالحديد المثبت تسامير مكوبجة ويوجد فى وسطها خوخة عبارة عن فتحة على هيئة باب صغير للاستعمال اليومى، دون الحاجة إلى فتح البواب الكبيرة الا عند الضرورة لخروج قوات المماليك أو رجوعها السلوك جـ ٢ ص ٥١٥ حاشية.

أتناظرى الجسر الذى هو جنة فيها القصور تضم حور العين
أنهارها تجرى بها السقى التى قد ركبت للبسط بالتحسين

فلما سمعت الجزيرة ما قاله الجسر أرسلت أدمعها نهرا من الحنق. وكادت تشرف فيه على الغرق. وقالت: ياجسر تجاسرت على الكلام. وذكرت مراكبك المنكسة الاعلام. أنسيت قلاع مراكبى المتفردة. وسناجق أعلامها المتعددة. التى تخالها فى سماء مائى قطع الغمام. أو على غصون صواريها أجنحة بيض الحمام. فاترك هذا الغلط العظيم. والا نتقاوى بالقول السقيم. ثم انشدت تقول:

جوارى كالعرائس شايلات مقادم إزارهن لحوض ماء
وبالأبواب تحجبنى ملوك على الحجاب هم أهل الولاء

فلما سمع الجسر ما قالته الجزيرة زادت حدة نيرانه لالتهابه الشديد. من عظم الوقيد. وقال: ألك بواب تقف عليه الملوك. غير الباب المترسم عليه قديدار الملوك. فلو استعار وقوف الملكين ببابك. جملة من أصحابك. فصاحب كل عقل وتمييز. يعلم أنك لم تكونى غير دهلير. ولولا ذاك ما وصفوا فيك الزرابى المقطعة بالترخيم. ولا وطىء حر وجهك فى كل نهار وليل بهيم. وإن افتخرت بأن البحر عليك دوار. فسيدتك فى جوارى جعلتها باسم المهتار (١) اتناظرين بموردة الجبس (٢) خرطومى

(١) المهتار لقب من القاب الوظائف من طائفة أرباب الخدم فى دولة المماليك وهو يطلق على كبير كل طائفة من غلمان بيوت السلطان فيقال مثلا مهتار الشراب خاناه ومهتار الركاب خاناه، واصل الكلمة فارسى معناها الاكبر.

(٢) موردة الجبس كانت ممتدة على النيل وفيها فم الخليج الناصرى، ويمثلها الآن المنطقة المحدودة بين شارع عائشة التيمورية جنوبا حتى شارع عبد القادر حمزه شمالا بحاردن ستى، وهى تواجه الجزء الجنوبى من الجزيرة الوسطى.

الشهى أم بشاطئك التى تنزل فيه النواتية (١) وجه مقصفى البهى . اغزلى كتانك وتحلى بقرطك . واطلبى مغزلا لسد فم الخور (٢) من وسطك . ثم انشد يقول :

تحلى بقرط يا جزيرة واطلبى	لك مغزلا لا تحتاجه ذات كتان
وفى سد فم الخور من وسطك اجهدى	بأن تدخلى فيه قراميط كتان

فلما سمعت الجزيرة ما قاله الجسر غرقت فى بحر من الخجل . واندرست رسوم أعتاب بيوتها من البلل . فقالت : ياجسر استطلت بالفجور . وقذفت ربات الخدور . ولقد كان الأولى بك العدم حال وجودى . فهل أنت الإ من بعض جنودى . فلولا ماء سدى البكر . ما كان لخوختك من ذكر . ولولا شربت منه ياسمينتك الطارحة . ما تمسكت بطيب تلك الرائحة . فاحفظ يا جسر لسانك الجسور . والا رسمت بقطع الجسور . ثم انشدت تقول :

ايا جسر صن ذا اللسان الذى	على مثلى اليوم اضحى جسور
وان لم تكن ماسكا حرمتى	والإ رسمت بقطع الجسور

فلما سمع الجسر ما قالته زادت حدة نصل تياره . وسحب من خليجه مرهف بتاره . وقال بلغ من قدر منى يطأ حروجها الحافر المعقود . ان يذكر بلسانها الجسور اتفرحين يا جزيرة بالفشار . وكل ما قيل فى وصفك

---

(١) النواتية هم الملاحون الدين يديرون السفن .

(٢) الحور فى اللغة هو مصب الماء فى البحر، وقيل هو حليج مى البحر، وهو المطمئن من الأرض، وهو المنخفض من الأرض بين مرتفعين

وكان خليج فم الخور يخرج من النيل من المكان الواقع بين الآن ميدان عبد المنعم رياض وكان مواجهاً لمنتصف الجزيرة الوسطى .

مستعار . الست موردة الاحلاف (١) والسايبة الاطراف . ان وافاك داخل اخرجه عن طوره زلق وحسنك أو ريان قلب نشين حر نستك فان لم تظهرى حشمة الحرائر . أمرت بتغريق الجزائر .

فقال الجزيرة : ترا من أنت يا ساهى . حتى صرت الآمر الناهى . تبصر فإننى مليكة المقترجات بلا نزاع . ولولا ذاك ما انتشرت على رأسى شطفات القلاع . ألك بر مثل برى . أو بحر عرض بحرى . لو لم تكن البرية تزينك للعيان . لكنت كآحاد الخلجان .

قال الجسر :اتطعمين نفسك الجزر الفارغ . وتنفلقين بحبال التمر البازغ . هل يعرف بملك المفترجات غيرى . إذ ببابى حاجبى . وتسلطنت فاتخذت البسط نائبى . بحرى بقدر مراكبى . وبرى بر مراكبى . أتفتخرين بقلاعك التى تحط منها عند دخولها إلى الرتب . وبمراكبك الحمالات التبن والحطب . أهل تشبهين سوى الريف الذى لم يسكنه من مصر لطيف . من سكن فيك تصدع من الصياح . المرتفع من أهلك فى المساء والصباح .

فقالت الجزيرة : الكلام ربيع القلوب . والخمدة من أعظم العيوب بنوس أهلى تتنبه سكانى للصلاة . ويشغل به عن الفكرة من مَلَّةُ حبيبه فقيل أنه سلاه . فانا للناظر بستان . وللعاشق سلوان .

فقال الجسر : أنا أجدد العهود بين الحبايب . ولم أترك خلا لخله مجانب . وأزيل ضغائن القلوب . ومقاصفى تصلح للجمع بين المحب والمحبوب . وأنا من بين القصرين (٢) قريب . وكم لى فيهم من حبيب .

---

(١) موردة الأحلاف أى إنها تنبت بها حشائش الحلفا، وقد كان على النيل بمصر القديمة فى العصر المملوكى منطقة تسمى موردة الحلفا تقع الآن ما بين كوبرى الملك الصالح إلى ميدان فم الخليج.

(٢) بين القصرين هو الخط المعروف فى قصبة القاهرة نسبة إلى القصرين الفاطميين المتواجهين القصر الشرقى الكبير والقصر الغربى الصغير وكان عبارة عن براح من الأرض يسع لعشرة الآف من العسكر ما بين فارس وراجل . وبعد انقراض الدولة الفاطمية بنى فى هذا الفراغ وصار هذا الخط من أعمر وأرحم خطط القاهرة بما يضم من آثار وخاصة الآثار المملوكية الشهيرة مثل مجموعة قلاوون ومدرسة ابنه الناصر محمد، ومدرسة برقوق وغيرها

فقالت الجزيرة : ياكثير الحيلة . وهلى أنا بعيدة من باب زويلة [١] فاسدد خوخة العياقة [٢] ولا تدخل معى فى هذا الباب فمالك به طاقة

فقال الجسر : وهل بذا الباب افتخار . وقد قال فيه الناظم حين شاهد ما كان لأمر سوار [٣]

بباب زويلة شاهدت امرا ... يخيل انه للنار بابا
كلاليبا [٤] به سحبت عصاة ... تذيقهم الزبانية عذابا

فقال الجزيرة : دع الاستعارة ياعيار . وخذ فيما لا عليه غبار . أتقاوم بخوخة وياسمينة . ماء سدى الذى صيرك من الشرب منه طينه

فقال الجسر: كم تفتخرى بماء السد اللطيف . أهل أنت غير جريرة فى التصحيف . ولولا خوختى المقصودة . وياسمينتى المنضودة . ونرجس عيون غزلانى . وورد خدود أغصانى . وتفاح خدود أقمارى ورمان نهود أبكارى ما انجرع ماء السيد الغفار ولا اشتهى شراب العقار .

---

(١) باب زويلة اشهر باب من أبواب القاهرة وهو يقع فى السور الجنوبى لها (اثر رقم ٩٩) وتاريخ انشائه الحالى يعود إلى سنة ٤٨٥هـ / ١٠٩٢م على يد بدر الجمالى وعلى بدنتيه العلويتين بنى المؤيد شيخ مئذنتين لمسجده .

(٢) خوخة العياقة عبارة عن فتحة فى سور القاهرة العربى نقبها العياق (اللصوص) ليغيروا فيها على الناس فى الخليج والبر الغربى له .

(٣) سوار كان حاكما على امارة دلغادر وهى إحدى الإمارات التركمانية على حدود الدولة المملوكية بالشام، وأعلن العصيان على السلطان قايتباى بايعاز من الدولة العثمانية، وقامت عدة معارك بينه وبين المماليك إلى أن استطاع الأمير يشبك الدوادار أن ينتصر عليه سنة ٨٧٦هـ واقتاده أسيراً إلى مصر حيث انتهى الأمر بشنقه على باب زويلة فى ربيع الأول سنة ٨٧٧هـ .. ابن إياس، بدائع الزهور جـ ٣ ص ٧٧ - ٧٨ .

(٤) الكلاليب هى حديدة معوجة الرأس يعلق بها الشيء (مثل الهلب) .

فقالت الجزيرة : أمرتك بترك الاستعارات . فاغربت من معجمها اغرب العبارات .ويلك لولم اتميز عليك إلابانفراد القلاع . وهذا قد انعقد عليه الاجماع . وسيظهر لى قرط وكتان . يروى بما استعرته لحاجبك من شقائق النعمان .

فقال الجسر : أتذكرين ربيع حاجبى المحفوف بالبنفسج والاقحوان . ومع كتانك المهان . وفى الأمثال شتان ما بين بنفسج وكتان . سخجلين أعظم خجلة . فلا يساوى كتانك معه بقلة .

فقال الجزيرة : كفاك ان تغد وتروح . ولم تر قلعا أمامك يلوح .

فقال الجسر : ان افتخرت بقلاعك فانا لقلعك بالمرصاد . مع ان لى النظر على قلاع تزيد بذات العماد . ولو لم تكن القلاع حصينة وما سكنتها الملوك . ولا وقف بابواب سكانها مملوك . ولو لم اكن خاص الخواص الفاخر . لما كنت تحت نظر انسان غير الزمان الناظر . نجل الفرع المثمر . والغصن الذى أصله مزهر . وفى ذلك يقول :

سلطان من مسك اليراع ومن سما	باسم الخليفة أفضل العمريس
وماسن نجل مزهر كسميّه	لم لا وذلك واحد العمرين

أجرى الله اقلامهما بالسعد الممدود . واوقف على امتداحهما ألسنة شعراء عصرهما المسعود .

فلما سمع الملك الأعظم . ذو السلطان الأشهم . الملك فى عساكر الأمواج النواصى . والمؤمر دون جميع الانهار على الطائع منهم والعاصى . والساحب من تياره نمشه ملكه ومن تخشى سطوة فتكه . المالك الملك

القدير. المسمى بالبحر الكبير ادام الله أيامه الزاهرة. وجعل دواليبه [1] على الأرض المجدبة هى الدائرة. ما دار بين ذلك الخصمين التسلسل فى الأقوال. وما ابدياه من هذه المحاججة فى التفصيل والإجمال. ورأى كل منهما أن له الفضل بأدلة قاطعة. والقوة الزائدة فى الرد على خصمه والمدافعة. . وما جاء أحد منهما الإ بدليل وبرهان. وإنهما من المفترجات النيلية هما الاعيان. أفاض عليهما مما أنعم الله عليه. وعمرها مما سيق من فضل الله إليه وناداهما بلطف: لكل منكما تفضيل. ومن قصد منكما كان لبيت البسط تكميل. وانتما بعدى أعظم مفترجات هذا الإقليم. وله بكما كما لكما به الفخر العميم. فاقلعا عن هذه المساوئ المدثورة. فكل منكما له محاسن مشهورة فتصالحها والحلاوة عندى. وسأجعل لكما الأمر على جميع المفترجات بعدى.

ثم اخلع عليهما من ملبوسه النهارى خلعا ترى الناظر العجب. وقد رقمتها الشمس المنيرة بالذهب. وأمر كاتبه النسيم ان يكتب منهما على طرس الماء تقليدا يذهب الشعاع . وارسل سعاة الأمواج للمفترجات تبشر من ساع وداع. فدقت كوسات الأنهر حين زمر الهوى فرحا. وسحبت تلك السعادة أذيال عزها مرحا ورقصت على الماء كل جارية. ونثرت السماء عليهم اللؤلؤ من سارية. ودام الفرح والسرور. واسفرت فى النهار والليل الشموس والبدور. وذلك فى عام تسع وسبعين وثمانمائة [2] تحسن من كل لفظة مطلعها وختامها. ما غاص شاعر فى بحر البلاغة فخار الدرر. ونظم عقودها فى سلك الأدب ونثر.

---

(١) دواليبه : سواقيه

(٢) (وثمانمائة) لم تكتب بالنص، ولكننى تعرفت عليها مما ورد فى هذه المناظرة من معلومات تؤكد هذا التاريخ وخاصة ذكر قصر العينى الذى لم يبن الا سنة ٨٧١هـ / ١٤٦٦م. وكذلك واقعة سوار التى حدثت سنة ٨٧٧هـ/ ١٤٧٢م.

يا من حنا سمعه وناظره ... منها ثمار البديع والمعنى
تلقها بالقبول تحظ بها ... بكرا تجلت بديعة حسنا
لاتنتقدوا بتدبرى دررا ... رقت ومن جوهر اعدت اسنى
صنفتها والشباب زهرته ... كما بدت غضة ومأمنا
مع أن هذا بفكرة خمدت ... من جور دهرى وحظى الأدنى
والحمد لله والصلاة على ... محمدما الشكور قد اثنا
والآل والصحب كلما سقيت ... أرض بماء وانبتت غصنا

هذا ما انتهى إليه الغوص على الدرة المنيرة فى مناظرة الجسر والجزيرة. وذلك مع اشتغال البال. والحمد لله على كل حال. وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا دائما أبدا إلى يوم الدين والحمد لله رب العالمين.

المفاخرة الثالثة

مفاخرة قناطر الوزو الزاوية الحمراء

أولا : دراسة تاريخية لقناطر الوز والزاوية الحمراء

لكى نتكلم على قناطر الأوز نذكر نبذة مختصرة عن الخليج [١] الذى كانت هذه القناطر معقودة عليه، ونقول ان الخليج عرف فى صدر الإسلام باسم خليج مصر وخليج الفسطاط وخليج أمير المؤمنين نسبة إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه، وقد اطلق عليه فى العصر الفاطمى اسم خليج القاهرة وعرف أيضا باسم خليج اللؤلؤة نسبة إلى منظرة اللؤلؤة التى كانت على الشاطىء الشرقى له ويمثل موقعها الآن الأرض المقام عليها مدرسة الفرير بالخرنفش، وظل اسم خليج القاهرة مستعملا فى العصر الأيوبى، وفى العصر المملوكى عرف باسم الخليج الحاكمى وعرف أيضا باسم الخليج الكبير وباسم الخليج فقط.

ويعتبر الخليج أقدم مجرى مائى محفور بواسطة الإنسان فى مصر وكان يعرف باسم قناة سيزوستريس فى عهد سنوسرت الثالث، وقد حفره فى العصر الإسلامى عمرو بن العاص والى مصر من قبل الخليفة عمر بن الخطاب فى سنة ٢٣هـ / ٦٤٤م، ومسار الخليج يمثله الآن شارع بورسعيد (شارع الخليج المصرى) بحدود مدينة القاهرة ثم يسير فى وادى

---

(١) عن الخليج بالتفصيل انظر:

محمد الششتاوى ، متنزهات القاهرة فى العصرين المملوكى والعثمانى ص ٢٦٣ - ٢٩٦ .

الطميلات حيث الخصوص وسرياقوس والخانكة فى محافظة القليوبية ثم أبو زعبل والعباسة بالشرقية ثم إلى الإسماعيلة حيث يمر ببحيرة التمساح والبحيرات المرة حتى ينتهى إلى خليج السويس عند مدينة السويس. ويبلغ طول الخليج بحدود مدينة القاهرة الكبرى ٤٦ كم وعرضه المتوسط من ١٠ إلى ١٥ مترا، وقد ردم الخليج بالقاهرة فى سنة ١٨٩٨م وحل محله شارع الخليج المصرى الذى تغير اسمه إلى شارع بورسعيد بعد حرب ١٩٥٦م.

وكان يبلغ عدد القناطر على الخليج فى حدود مدينة القاهرة ١٤ قنطرة هى:

١ ـ قنطرة السد . ٢ ـ قناطر السباع ٣ ـ قنطرة عمر شاه

٤ ـ قنطرة طقز دمر ٥ ـ قنطرة اقسنقر ٦ ـ قنطرة باب الخرق

٧ ـ قنطرة الأمير حسين ٨ ـ قنطرة الموسكى ٩ ـ قنطرة باب القنطرة

١٠ ـ قنطرة باب الشعرية (الخروبى) ١١ ـ القنطرة الجديدة

١٢ ـ قناطر الأوز ١٣ ـ قناطر بنى وائل ١٤ ـ قنطرة الأميرية.

وعن قنطرة الأوز نقول إنها كانت تصل بين الحسينية شرقا إلى أرض البعل غربا.

ويمثل موقعها الآن نقطة على شارع بورسعيد (شارع الخليج المصرى سابقا) تجاه حارة قنطرة الظاهر بالقاهرة [١].

---

(١) محمد رمزى، تعليقه على كتاب النجوم الزاهرة لابن تغرى بردى جـ ٩ ص ٨٣.

وقد أنشأ هذه القناطر الملك الناصر محمد بن قلاوون سنة ٧٢٥هـ / ١٣٢٥م على يد الأمير قدادار والى القاهرة آنذاك ، إلى جانب عدة قناطر أخرى مثل قنطرة الأميرية وقنطرة الأمير قدادار وذلك بمناسبة حفر الخليج الناصرى واتصاله بالخليج الكبير.

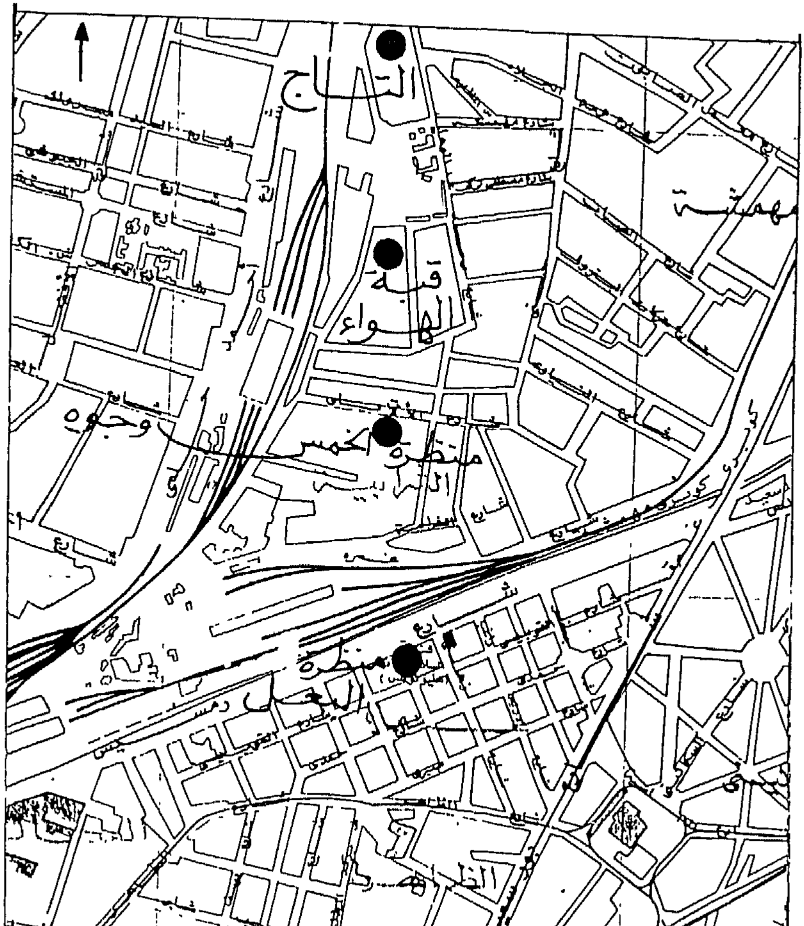
وقال المقريزى عن القناطر وما حولها أيامه « وأدركت هناك أملاكا مطلة على الخليج بعد سنة ثمانين وسبعمائة، وهذه القناطر من أحسن متنزهات أهل القاهرة أيام الخليج لما يصير فيه من الماء ولما على حافته الشرقية من البساتين الأنيقة، الإ إنها الآن خربت ، وتجاه هذه القنطرة منظرة البعل التى تقدم ذكرها عند ذكر مناظر الخلفاء وبقيت آثارها إلى الآن أدركناها يعطن فيها الكتان وبها عرفت الأرض التى هناك فسميت إلى الآن بأرض البعل، وكان هناك صف من شجر السنط قد امتد من تجاه قناطر الأوز إلى منظرة البعل وصار فاصلا بين مزرعتين يجلس الناس تحته فى يومى الاحد والجمعة للنزهة فيكون هناك من أصناف الناس رجالهم ونسائهم ملا يقع عليه حصر ويباع هناك مآكل كثيرة وكان هناك حانوت من طين تجاه القنطرة يباع فيها السمك أدركتها وقد استؤجرت بخمسة آلاف درهم فى السنة عنها يومئذ نحو مائتين وخمسين مثقالا من الذهب على أنه لا يباع فيها لاسمك الإ نحو ثلاثة أشهر أو دون ذلك، ولم يزل هذا السنط إلى نحو سنة تسعين وسبعمائة فقطع وإلى اليوم تجتمع الناس هناك ولكن شتان بين ما أدركنا وبين ما هو الآن وقيل لها قناطر الأوز »[١].

---

(١) الخطط جـ ٢ ص ١٤٨.

وفى قناطر الأوز وبركة البشنين بجوارها قال الأمير سيف الدين آلوز سنة ٨٤٨هـ :

فـى مـصـر يـعـزى لـلأوز قـنـاطـر | يـعـبـر الـنـديم لـهـا الخـمـرة كـاسـه
وحكى بها البشنين شخصا خائضا | فـى المـاء لـف ثـيـابـه فـى راسـه



(شكل ٧) موقع منظرة الخمس وجوه بين قبة الهواء ومنظرة البعل بالقاهرة

وقال آخر فى المعنى:

قـنـاطـر الـوز لـهـا رونـق | قـد يـأذن الـنـيـل بـتـشـريـفـه
يـا حـبـذا بـسـطـك فـيـهـا عـلـى | عرائس النيل فى تصحيفه (١)

وعن أرض البعل (٢) والتاج التى كان الناس يعبرون من على قناطر الأوز إليها نقول أن أرض البعل كانت فى العصر الفاطمى بستانا يعرف بالبعل وفيه منظرة البعل وقد أنشأهما الأفضل شاهنشاه بن أمير الجيوش بدر الجمالى وقد جعل على هذا البستان سورا (٣).

وأرض التاج كانت فى العصر الفاطمى بستانا وفيه منظرة التاج بناها الأفضل أيضا، وكان بستان التاج مجاوراً لبستان البعل ويجاورهما بستان الخمس وجوه، وكانت تلك البساتين والمناظر من أجل متنزهات الخلفاء والوزراء الفاطميين (٤).

وأرض البعل تقع فى جانب الخليج الغربى بحرى أرض الطبالة مقابل قناطر الأوز، وقد ذكر «المقريزى» انها فى ايامه كانت مزرعة ويخرج الناس للتنزه هناك أيام الربيع والنيل، وقد خربت المنظرة آنذاك وبقى منها

(١) السيوطى، رسالة فى ذكر ما قالت الشعراء فى وصف مصر ص ٨.

(٢) البعل فى اللغة هو الزرع يشرب بعروقه فيستغنى عن السقى، والبعل الأرض المرتفعة التى لا يصيبها المطر الا مرة واحدة فى السنة، وقيل البعل كل شجر أو زرع لايسقى، وقيل البعل ما سقته السماء وقد استبعل الموضع، والبعل من النخل ما شرب بعروقه من غير سقى ولا ماء، وقيل هو ما اكتفى بماء السماء، والبعل ما اعطى من الإتاوة على سقى النخل. انظر مادة بعل فى المعجم الوسيط، المقريزى، الخطط حـ ٢ ص ١٢٩.

(٣) المقريزى، الخطط حـ ١ ص ٤٨٠ - ٤٨١، حـ ٢ ص ١٢٩

(٤) نفسه.

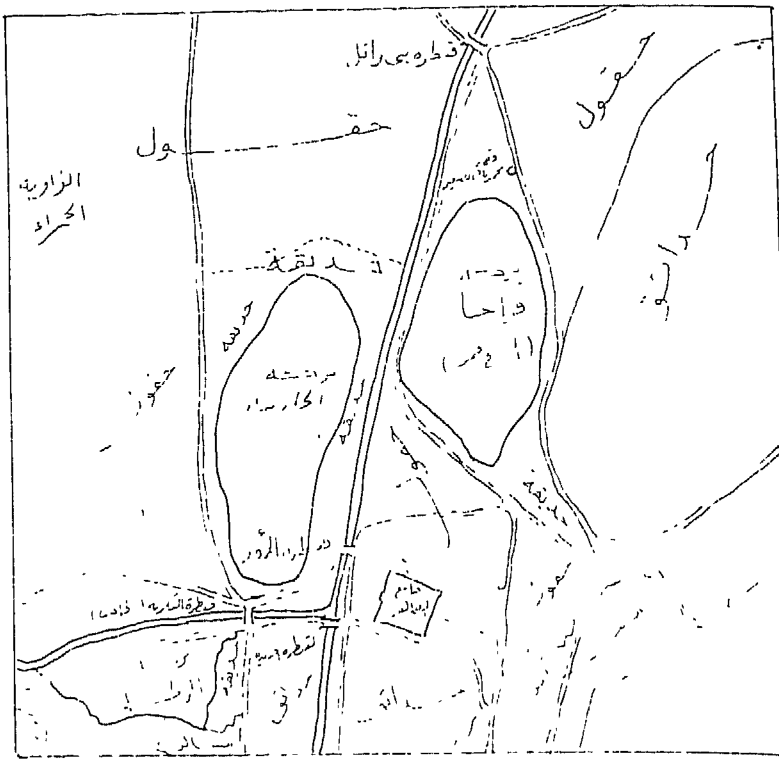
آثار أدركها المقريزى يعطن بها الكتان تدل على عظمها وجلالتها فى حال عمارتها [١].

أما أرض التاج أيام المقريزى فقد زالت عنها الأشجار. واستقرت فى أراضى منية السيرج الخراجية، وفى أيام النيل ينبت فيها نبات يعرف بالبشنين له ساعد طويل وزهره يشبه اللينوفر وإذا أشرقت الشمس انفتح فصار منظرا أنيقا وإذا غربت الشمس إنضم [٢] . وربما هو الذى تعرفه اليوم باسم عباد الشمس.

---

(١) نفسه.

(٢) المقريزى ، الخطط جـ ١ ص ٤٨١ .



(شكل ٨) موقع قناطر الوز وبركة الحازندار والزاوية الحمراء

بالقاهرة فى خريطة الحملة الفرنسية

ويمثل أرض البعل الآن المنطقة السكنية فى غمرة والشرابية المحدودة من الشرق بشارع الخليج المصرى (بشارع بورسعيد) ومن الشمال بشارع الآلايلى وما فى امتداده ومن الغرب بخط السكة الحديد الموصلة إلى محطة مصر ومن الجنوب بشارع الظاهر ومافى امتداده .

وأرض التاج تقع شمال المنطقة السابقة ويمثلها الآن المنطقة السكنية المعروفة بمهمشة، وحدها الشرقى شارع الخليج المصرى أيضا والحد الشمالى بشارع معمل الصابون ومن الغرب السكة الحديد ومن الجنوب بشارع الآلايلى وما فى امتداده (شكل) .

مما يجدر ذكره هنا أن نقول أنه كان يوجد بركتان على جانبى الخليج عند قناطر الأوز الواقعة شرقى الخليج هى البركة التى عرفت فى العصر المملوكى باسم بركة قراجا ثم عرفت فى العصر العثمانى باسم بركة الشيخ قمر، والواقعة غربى الخليج مواجهة تماما لقناطر الأوز لم يذكرها المقريزى فى حصره للبرك بالرغم من أن مساحتها أكبر قليلا من بركة قراجا وربما اغفلها المقريزى لخلو ما حولها من البناء .

وفى دراستى لبرك القاهرة فى العصرين المملوكى والعثمانى فى رسالتى متنزهات القاهرة فى العصرين المملوكى والعثمانى تكلمت عن تلك البركة الغربية فى حاشية عند دراستى لبركة قراجا (بركة الشيخ قمر) وذكرت ان قد وقعت فى خرائط الحملة الفرنسية باسم بركة الشيخ قمر هى والمواجهة لها أيضا .

ولكى من حسن حظنا اننا تعرفنا على اسم هذه البركة فى العصر المملوكى من خلال تلك المناظرة وهو بركة الخازندار .

ويمثل موقع هذه البركة الآن جزء من حى غمرة وجزء من حى الشرابية ينحصر بين شارع الظاهر جنوبا، وشارع المنياوى والشارع الآلايلى شمالا.

الزاوية الحمراء بنيت فى بلد عرف فى العصر المملوكى باسم كوم الريش وذكر «المقريزى» أن «كوم الريش اسم لبلد فيما بين أرض البعل ومنية السيرج، وكان النيل يمر بغربيها بعد مروره بغربى أرض البعل»(١).

وكان كوم الريش من أجل منتزهات القاهرة ورغب الناس فى سكناها للتنزه بها (٢)، وقبل المحن التى تعرضت لها القاهرة ابتداءاً من سنة ٨٠٦هـ كان يسكن بكوم الريش عدة امراء دائما وكان جملة من سكن فيها دائما نحو الثمانمائة من الجند السلطانى (٣).

وعن عمارتها قال المقريزى « وأنا أدركت بها سوقا عامرا بالمعايش بأنواعها من المآكل ولا أعرف اليوم بالقاهرة مثله فى كثرة المآكل وأدركت بها حماما وجامعين تقام بهما الجمعة وموقف مكارية ومنارة لا يقدر الواصف أن يعبر عن حسنها لما اشتملت عليه من كل معنى رائق بهيج »(٤).

وعما آلت إليه فى زمنه من خراب قال « وما برحت على ذلك إلى أن

---

(١) الخطط جـ ٢ ص ١٣٠.

* وقال المقريزى عن النيل وأثره على كوم الريش « .. وأدركت آثار الجروف باقية من غربى البعل وغربى كوم الريش إلى أطراف المنية (منية السيرج) حتى تغيرت الأحوال من بعد سنة ست وثمانمائة فغاض ماء النيل فى أيام الزيادة ونزل فى الدرب الذى كان يسلك فيه من أرض الطبالة إلى المنية فانقطع هذا الدرب وترك الناس سلوكه ».

(٢) المقريزى، الخطط جـ ٢ ص ١٣٠. (٣) نفسه.

(٤) نفسه.

حدثت المحن من سنة ست وثمانمائة فطرقها أنواع الرزايا حتى صارت بلاقع وجهلت طرقها وتغيرت معاهدها ونزل بها من الوحشة ما أبكانى وأنشدت فى رؤيتها عند مشاهدتها خرابا :

قفرا كأنك لم تكن تلهو بها ... فى نعمة وأوانس أتراب (١)

« وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن اخذه أليم شديد »(٢).

ولكن الأزمات التى بدأت سنة ٨٠٦هـ لم تدم ، ففى أيام المؤيد شيخ بدأ التعمير يعود للقاهرة، وعادت كوم الريش إلى ما كانت عليه سابقا أثناء سلطنة الملك الأشرف قايتباى، فقد أنشأ بها زاوية تجاه جامع قيدان دهنت حيطانها باللون الأحمر فعرفت بالزاوية الحمراء وكان ذلك سنة ٨٩٠هـ وقد عرفت كوم الريش منذ ذلك الوقت باسم الزاوية الحمراء(٣)، وكان بناء الزاوية على يد أبى البقاء بن الجيعان (٤).

وذكر ابن إياس إنه فى جمادى الأولى سنة ٨٩٦هـ « انتهت عمارة أبو البقاء بن الجيعان من تجديد ما عمره فى الزاوية الحمراء التى عند قناطر

---

(١) نفسه. (٢) سورة هود الآية ١٠٢.

(٣) السخاوى، الضوء اللامع جـ ٦ ص ٢٠٩، محمد رمزى ، القاموس الجغرافى ق ٢ حـ ١ ص ١١، تعليقه على النجوم الزاهرة جـ ٩ ص ٢٠٣.

(٤) ابن الجيعان هو أبو البقاء محمد بن يحيى بن شاكر، كان رئيسا حشما فاضلا عارفا باحوال المملكة وكان مقربا عند الأشرف قايتباى ورقى فى أيامه وانتهت إليه الرياسة وفاق على من تقدمه من أقاربه وكان أدوبا حلو اللسان سيوسا وله اشتغال بالعلم وكان من نوابغ بنى الجيعان، وكان له بر معروف، وقد قتله بعض المماليك فى ذى القعدة سنة ٩٠٢هـ عن عمر يناهز الستين عاما وولى السلطان مكانه اخاه صلاح الدين وقرره فى استيفاء الجيش مضافا لما بيده من كتابة السر» ابن إياس، بدائع الزهور جـ ٣ ص ٣٦٣.

الأوز وصارت من جملة مفترجات القاهرة، وفى ذلك يقول بعض الشعراء:

عجبت لجامع قد زاد حسنا	وابدع فى التزخرف والبناء
به انهار تجرى فى جنان	وقصر شاهق لأبى البقاء

وصنع هناك جامعا بخطبة وجاء فى أحسن المبانى » (١).

ونفهم من كلام ابن إياس ان ابن الجيعان قد حول الزاوية إلى جامع بخطبة ويرسم لنا بن إياس صورة للمنطقة آنذاك بقوله فى ترجمته لابن الجيعان انه هو « الذى انشأ عمارة الزاوية الحمراء وجعل بها خطبة والحوض والسبيل، وانشأ هناك القصور والمناظر والغيط الحافل وصار ذلك المكان من جملة مفترجات القاهرة وتسعى إليه الناس فى زمن النيل بسبب الفرجة هناك وصار عوضا عن التاج والسبعة وجوه التى كانت من المفترجات القديمة » (٢).

وظلت أعمال ابن الجيعان قائمة فى العصر العثمانى وكانت الزاوية معروفة باسمه وقد آل القصر الذى انشأه والجنينة الملحقة به وكذلك الأراضى والغيط الذى كان جاريا فى أوقافه إلى الأمير عثمان كتخدا القاذدوغلى فى محرم سنة ١١٤٥هـ (٣).

---

(١) بدائع الزهور جـ ٣ ص ٢٨٠ - ٢٨١.

(٢) ابن إياس، بدائع الزهور جـ ٣ ص ٣٦٣.

(٣) كتاب وقف عثمان كتخدا القاردو غلى رقم ٢٢١٥ أوقاف ص ١٥٢، ١٥٣، ١٥٦.

ثانيا : التحقيق والتقييم

(أ) التحقيق :

تقع هذه المفاخرة ضمن المجموعة التى جمعها يوحنا الفرنسيس التى تحمل رقم ١٥٨٦ أدب فى مخطوطات دار الكتب المصرية بعنوان مفاخرة الأزهار والنباتات الناضرات ومجاهرة الأطيار والجمادات الناطقات .

وتقع فى ٢٠ صفحة من ص ٩٣ : ١١٢ من المجموعة ، وهذه المجموعة نسبت خطأ إلى المقدسى (٧٦٤ - ٨٢٠هـ) وقد تبين لى ذلك الخطأ من خلال دراستى لها ومنها هذه المفاخرة وقد أثبت تأليف بعض هذه المفاخرات بما يزيد عن خمسين سنة بعد وفاة المقدسى .

ومؤلف مفاخرة قناطر الوز والزاوية الحمراء غير معروف على التحديد ولكننا نستطيع أن نحدد تاريخ تأليفها فيما بين سنتى ٨٩٦هـ حتى ٩٠١هـ من خلال المعلومات التى تحويها من ذكر لجامع السلطان قايتباى بجزيرة بالروضة الذى كمل بناؤه سنة ٨٩٦هـ، وفى نفس الوقت ذِكْرٌ للسلطان وهو قايتباى الذى توفى سنة ٩٠١هـ.

وهذه المفاخرة مكتوبة باللغة العامية وفيها كثير من الألفاظ الدارجة وأسلوبها سهل، وعباراتها موزونة الايقاع .

التقييم :

ترجع أهمية هذه المفاخرة إلى احتوائها على معلومات هامة تفيد فى دراسة التخطيط العمرانى لمدينة القاهرة وكذلك دراسة المجتمع المصرى إبان العصر المملوكى وقت تأليفها .

وأهم تلك المعلومات إننا تعرفنا من خلالها على اسم بركة كبيرة تسمى بركة الخازندار كانت على الشاطئ الغربى للخليج الكبير أمام قناطر الوز مواجهة لبركة الشيخ قمر وكانت متنزها جليلا فى العصر المملوكى ولم يذكر عنها المؤرخ المحقق المقريزى شيئا بالرغم من أهميتها .

كذلك تلقى المفاخرة الضوء على الزاوية الحمراء التى بناها السلطان قايتباى وجددها أبو البقاء بن الجيعان، وقد أصبحت متنزها جديدا للقاهرة جذب الناس إليه لموقعه ألفريد بين بساتين جميلة ومزارات دينية هامة .

وحوت المفاخرة أسماء المتنزهات المنافسة المعاصرة لها وأماكن أخرى هامة فى أواخر العصر المملوكى مثل الأزبكية والجزيرة الوسطى وبولاق وجزيرة الروضة وقنطرة الحاجب وقنطرة الليمون ومنية السيرج وغيرها .

وهى تمدنا بصورة صادقة عن مظاهر التنزه والتفرج والترويح عن النفس فى تلك الأماكن بما يصاحبها من إقامة موائد بها وذكر لأنواع الأطعمة المصاحبة لها والتى لا يزال الناس فى وقتنا هذا يفعلوه للآن .

ثالثا النص

مفاخرة قناطر الوز والزاوية الحمراء

بسم الله الرحمن الرحيم

حكى صاحب البهجة الحلوانية قال : تفاخرت قناطر الوز مع الزاوية الحمراء ذات الأسرار الربانية وقال من بدأ بالكلام . قناطر الوز والسلام. لأنها شكت ما بها من الغيرة والنار. من الزاوية الحمراء إلى بركة الخزندار [١] .

فقالت لها . أنا لا شك من صفك . وحاميتك من قدامك ومن خلفك . والفضل للسابق ، وانا ظهرك . إذا حقت الحقائق. قال: فعندها تقنطرت أحسن ما كانت . وأسفرت عن معانى حسنها وبانت. وقالت: أنا قناطر الوز . وصاحبة الجمال والعز . وكم لى بين الأنام عشاق . يجبيئوا الىّ من الجزيرة وبولاق . وكم خلق يأتونى فى الراكب . ومن كل ما شى وراكب . واسمى عالى على كل القناطر ومسمى . والقناطر كلها

---

(١) بركة الخزندار بركة تعود للعصر المملوكى كانت على الجانب الغربى للخليج مواجهة لقناطر الاوز يمثل موقعها الآن جزء من حى غمرة وجزء من حى الشرابية ينحصر بين شارع الطاهر جنوبا وشارع المنياوى وشارع الآلايلى شمالا .

من تحت حكمي. وأيام النيل هي أيام المواكب . فكم فيها يُرى تحتي مراكب. وكم عندى من واقفين على الرؤوس . والىّ تشتاق النفوس . وأنا فريدة الدهر وحيدة الزمان . وأصيلة في هذا المكان . وذا المكان مشرق بحسنى وضاح . وقد انتشر ذكرى في سائر البلاد وراح . وكم ظهر علىّ من أزبكية وجزيرة (١) . وما قاسيت قط غيرة . لأن الناس كانوا يسيبوهم ويجونى . ولا قط كانوا يهجرونى وكم حولى من زوايا للبقلى وللكردى. والناس يسيبوهم ويجوا إلى عندى . ويجلسوا تحتى يونسونى. ولا يبقى يهون عليهم يفارقونى . حتى قضى علىّ علام القدرة بك ياذا الزاوية الحمرا وايش اقدر اتكلم وايش اقدر أقول . ما كانكى عملتى إلا محبة وقبول . وعقد لسان مع جلب . وقد أتوكى أهل الشام مع حلب. فقعدتى تجاهى . وكسرتى عزى وجاهى . وأخذتى أهلى وأولادى . وملكتى أرضى وبلادى . وتركتينى بين الأنام نقمة. ولاخليتى عندى ولا لقمة . فكم كان تحتى بطيخ عُبَيْدى. أصحابه فلمانى وعبيدى يكنسوا تحتى ويفرشوا. ويقعدوا يتحدثوا ويلقشوا . وكان عندى جبن حالوم مع البان. وكان تحتى دكان الجبان ، وأشراس بصل مع كرات ، وأم الخلول مزقزقة على البحرات ، وباذنجان

(١) الاربكية هي بركة الربكية التى كانت تعرف من قبل ببركة بطن البقرة ثم أعاد حفرها والاعتناء بها واقامة العمائر حولها الأمير أزبك من ططخ الاتابكى فى الفترة من دى الحجة سنة ٨٨٠ هـ / ١٤٧٦ م حتى جمادى الأولى سنة ٨٨٩ هـ / ١٤٨٤ م وكانت البركة متنزها عظيما بقية العصر المملوكي وطول العصر العثمانى ، وردمت البركة أيام الخديوى اسماعيل وتحولت الى الحديقة الموجودة بقاياها للآن .

أما الجزيرة المذكورة فهى الحريرة الوسطى التى ظهرت للوجود بعد سنة ٧٠٠ هـ / ١٣٠٠ وعمرت بعد ذلك عمارة عظيمة أيام الناصر محمد بن كلاوون .

مقلى كل واحدة مثل الخروف . والناس مصفوفة حولى صفوف ، وخبز ماوى مع رومى ، وأنا بين جندى وقومى، وكم كان لى من المقدار ، وكم كان حولى من مسكن ودار. فقلبتى أنت الدست (١) . عليّ وأخذتى الكل ورحتى إلى فوق شوية . وبنيت عندك القصور والأملاك ، وأخذتى من عندى الجميع حتى دكان السماك (٢) . وكم كان له فى صحبتى أزمنة معتدة ، فأخذتيه وتركتى الدكان منهدّة ، وأسكنتيه بدكان عامرة ، ما بنى مثلها فى مصر ولا فى القاهرة ، وكم إلتم عليك سوقة، واجتمع فيك أشكال متفرقة، وكم فيك أجبان مقلية وقشطة وعسولات نحلية وكم لحم على العويدات ، وكم نسا وكم وليدات ، وكم بطيخ عبيدى وكم جبن شريحه وكم صغيرة وكم مليحة . وكم جبن حالوم وكم مآكل . وما خليتى عندى شيء يتأكل . وكم فيك من الحلاوات صوانى ، وذا يعيّط تعا يا حلوانى ، وجمعتى فيك الناس على بعضها بعض ، وقد كانوا يقفوا تحتى ويجلسوا على الأرض ، وأخذتى جنودى وأحلافى ، وقد كنت من حلمى أخليهم يركبوا ظهرى واكتافى،

---

(١) الدست في اللغة صدر المجلس .

(٢) دكر المقريزى فى الخطط جـ ٢ ص ١٤٨ فى كلامه عن قناطر الأوز « وهذه القناطر من أحسن منتزهات أهل القاهرة أيام الخليج لما يصير فيه من الماء ولما على حافته الشرقية من البساتين الأنيقة . . . . وكان هناك صفا من شجر السنط قد امتد من قناطر الأوز الى منظرة البعل وصار فاصلا بين مزرعتين يجلس الناس تحته في يومي الأحد والجمعة للنزهة فيكون هناك من أصناف الناس رجالهم ونسائهم مالا يقع عليه حصر ، ويباع هناك مآكل كثيرة ، وكان هناك حانوت من طين تجاه القنطرة يباع فيها السمك ادركتها وقد استؤجرت بخمسة آلاف درهم فى السنة عنها يومئذ نحو مائتين وخمسين مثقالا من الذهب على انه لايباع فيها السمك الا نحو ثلاثة أشهر أو دون ذلك . . . . » .

وروحى قط ما منعتهم حتى انهم حرقونى وما كلمتهم. وكم جاءتنى خلايق، معها صحون من مطابق مع مطابق . و عِشنِ بهم كانت هنية ، فلما أخذتيهم ورحتى ما هان عليّ ، فان فراقهم عَليٍّ شديد، وقد كانوا لا يفارقونى ولا نهار العيد ، وما اقدر اسكت اتفرقع ، واتمزق واتقطع ، وما بقى شىء حولى سوى الكوم ، يا بنت البارحة واليوم ، وايش بقيتى تعملى معى ، فاصغى لقولى حقيقا واسمعى ، قبل اكمن لك كمين ، واقيم عليك العايط يا مسلمين ، واطلب اخذ الثار ، وتجينى بركة الخزندار، وتخرج لى الفرسان ، من شقة جامع قيدان (١) . ويقع بيننا الكلام، ولا نبقى صلح والسلام .

قال فعند ذلك أبدت الزاوية الحمرا ، عن رقيق خصرها ، وأسفرت عن رفيع قصرها ، وقالت يا قناطر الوز اصبحتى عجوزة، وحسادة غيرانه ومشوادة عجوزة ومجنونة غيرانه مغبونة تقولى انك عزيزة فأين عزك ، وأين دجاجك واين وزك ، قناطر الوز اسمك فاين دجاجك وأين وزك،

---

(١) جامع قيدان ذكره المقريزى فى الخطط جـ ٢ ص ٣١٢ فقال « هذا الجامع حارج القاهرة على جانب الخليج الشرقى ظاهر باب الفتوح مما يلى قناطر الاوز تجاه أرض البعل كان مسجدا قديم البناء فجدده الطواشى بهاء الدين قراقوش الاسدى فى محرم سنة ٥٩٧ هـ وجدد حوض السبيل الذى فيه ثم ان الأمير مطفر الدين قيدان الرومى عمل به مبرا لإقامة الحطبة يوم الحمعة وكان عامرا بعمارة ما حوله ، فلما حدث الغلاء فى سنة ٧٧٦ هـ أيام الملك الاشرف شعبان بن حسين خرب كثير من تلك النواحى وبيعت انقاضها وكانت الغرقة أيضا فصار ما بين القنطرة الجديدة المجاورة لسوق جامع الظاهر وبين قناطر الاوز المقابلة لارض البعل يبابا لا عامر فيه ولا ساكن فيه وخرب أيضا ما وراء دلك من شرقيه إلى جامع نائب الكرك وتعطل هذا الحامع ولم يبق منه غير جدر آيلة الى العدم ثم جدده مقدم بعض المماليك السلطانية فى حدود الثلاثين والثمانمائة ثم وسع فيه الشيخ أحمد بن محمد الانصارى العقاد الشهير بالازرارى ومات فى ١٢ ربيع الأول سنة ٨٤٣ هـ »

* وموقع جامع قيدان الآن بشارع قنطرة غمره عند تلاقية بشارع سعيد بخط السكاكينى بالقاهرة . انظر محمد رمزى ، تعليقة على النجوم الزاهرة جـ ٩ ص ٢٠٣ .

ما اوحش غبارك وما أكثر عجاجك ، فشارة وقشارة وما رأينا لك قط قنشارة ، شحاتة ودرويشة وما قتعنا لك ريشة ، تفسرى علينا بالمطابك بتاعك وما اطبق الا اضلاعك ، ولولا حسى ما عمرتى بعد ان كنتى خربتى ، لا زالوا عليك حتى خرقوكى وخلوكى ، وراجوا حتى كأنهم لا يعرفوكى ، وقد حصل لك بهجتى وأنسى ، وما ترضى ان تكونى تحت حسى وأنا أجود عليكى بفضلى واحسانى ، واسمعك من طيب الحانى، وذكرى وقرآنى ، فكم عندى من صلاة وآذان ، وأذكار وقراءة قرآن ، وفى ليالى البدر كم انشدونى قصايد ، وكم عملت أهل الكرم عندى موايد ، وكم رفعوا لى قصص يطلبوا برّى ورفدى، وما رضيت بأى من جاء يجيء لعندى، وفىّ كم سأل سائل، وأرسل فى طلبى رسائل وكم فىّ سال إنسان ، نظروه يمشى بجانب الخلجان ، وكل قلب الىّ مايل والخليج على جنبو همايل (١) ، ماؤها لم يزل همّال، والبّطال ما يشبه العمال، وحولى كم عدة بقاع مزروعة ، يا عجوزة ومخلوعة ، وبنى حولى رصيف ، كم عليه مليح وقصيف ، ينزل من على السلالم ، يغسل يديه ويطلع علىّ سالم ، وكم رئيس قصيف وكم جندى ، والناس معذورة إذا جاءت إلى عندى ، يبصرونى كالعروسة المجلية، يا عتيقة وأزلية، وليس حولى قمين ولا كوم ، وجليس لا يلمنى ولو أقام عندى ألف يوم ،أما تنظرى الى حمرتى وبياضى (٢) ، وزهرى ورياضى ، وساقيتى وغيطانى، وربيعى وغلمانى ، وزهرى وياسمينى، وأقحوانى

---

(١) همايل المقصود بها سواقى ، وفى المعجم الوجيز (هملت) العين ـ هملا ، وهملانا : فاضت وسالت ، و ـ السماء ؛ دام مطرها مع سكون وضعف .

(٢) اشارة إلى دهان الزاوية باللونين الاحمر والابيض على التوالى وهو المعروف فى الوثائق باسم المظام المشهر . وكانت معظم واجهات المبانى الدينية على هذا الأسلوب .

ونسرينى ، ونخيلى وطلحى ، وعزى وفرحى ، ومنظرتى وكرمى ، ومسطبة عزى وحكمى، واشجارى وثمارى، وظلى ونهارى ، ورياستى وحرمتى ، وكم عبد فى خدمتى ، والبدر بوابى وعتدى ، والمعروف مشدّى وعبدى، ودكتى المعلقة ، ونجومى المشرقة ، وبهجتى ونورى ، وضوئى وتنورى ، وأنهارى المرحمة ، وبحرتى المعظمة ، ومنبرى ومحرابى ، وسقوفى وأبوابى وصاحبى وتقاؤه ، وخيره وثناؤه ، وصلاحه وشقيقه ، وعلمه وتحقيقه ، وخطيبى ولطفه ، ورقته وظرفه ، وإمامى وحمايله ، وصلاحه وعمايله ، وصهريجى وسلسبيله ، وحوضى وسبيله، وتشاهدى لبديع صفاتى ، وبدريتى وختماتى ، وتسبيحى وسلامى على القوم الكرام ، فلهذا كنت مفضلة عليكى واعلا منزلة منكى ومن والديكى ، مجهولة الأصل لا يعلم من بناكى ، ولا من بهذا الاسم سمّاكى اسمى الزاوية الحمرا ، لما عندى من البياض والحمره ، وانتى لا شك كذابة محتالة ونصابة ، قنطرة ومحدوبة ، مقهورة ومغلوبة، فما تستحى وما تحاسبى نفسك ، وما تتكلمى مع من يكون من أبناء جنسك ، أين الثريا من الثرا ، أنا مدرسة وانتى قنطرة إلى ورا ، لو كنت عندى كما ذكرت بحسن أوصافك ، كنت راكبة ظهرك وفوق اكتافك ، ولو كان هذا الكلام لقنطرة الحاجب(١) ، لقالت الناس ما هو واجب أو لقنطرة الليمون (٢) لساءت به

(١) قنطرة الحاجب كانت على الحليلج الناصرى وكانت تصل بين أرض الطبالة إلى أرض النعل ومنية السيرج وغيرها ، انشأها الامير بكتمر الحاجب سنة ٧٢٥ هـ ويمثل موقعها الآن نقطة تقاطع شارع الظاهر مع شارع البكرية .

(٢) قنطرة الليمون كانت تسبق قنطرة الحاجب على الخليج الناصرى وكانت تعرف من قبل باسم قنطرة باب البحر وكان يتوصل اليها من باب البحر ويمر الناس من فوقها إلى بولاق وغيرها ، وهى مما انشاه الملك الناصر محمد بن قلاوون عند انتهاء حفر الخليج الناصرى فى سنة ٧٢٥ هـ ، ويمثل موقعها الآن نقطة بميدان رمسيس فى مواجهة شارع كلوت بك .

الظنون ، أو لقنطرة الدكة (١) ، لصكّوكى الف صكة ، فما لكى بهذا الكلام الذى ما انت قياسه ، فقد ولىّ عصرك وناسه ، وأنا وضعونى للناس أجمعهم ، أقل من أربعين عندى ما تصح جمعتهم ، وأنا فرجة جديدة ، ما يسيبونى ويجوكى ولو نشيتهم بجريدة . فصفاتك ما تشبه صفاتى ، ولا احد رأى لك وقتاً من أوقاتى ، أحبابى الذى انت متأسفة عليهم، كم داسوكى تحت رجليهم ، وكم سكروا فيك من سكرة ، وكم كسروا فى مخك من جرّة ، وبعدذا آخرقوكى يا معدله وحره يا مطية الحمير ، يا أم الف عفير ، يدوس عليك حتى اليهود والنصارى وزرارة ، وكم شخت عليك حمارة، وفى الليل والنهار ، كم بال عليك حمار ، حتى الكلاب تطلع فوقك ، كل دامن نحسك وقلة ذوقك . ومن نزل من عليك يدحدر ، ويخاف لا يقع يتكسر ، وان كان تحته حمار اخضر يخاف عليه لا يتقنطر ، ومن طلع فوقك ما يلتقى مكان ولا موضع يقعد فيه ، ولا مصطبة ولا شباك يجلس فيه ، ولا لك حظير ولا سطوح ، ومن قعد على جنبك يخاف لا ينزل يروح .

وكل من ضربتيه بهواكى إقْتَل ، يكون فوقك يبقى أسفل ، فإن كان

---

(١) قنطرة الدكة كانت على حليج الذكر وعرفت بقنطرة الدكة نسْبة للدكة التى كانت عند القنطرة ويحلس عليها المتفرجون أيام النيل ، وكانت اصولها ترجع الى العصر الفاطمى وقد عمرت هذه القنطرة مرة أخرى فى زمن الناصر محمد بن قلاوون على يد الأمير بدر الدين التركمانى فعرفت باسمه ، ثم اعاد تعميرها الأمير أزبك عندما أعاد حفر الخليج وجعله يخرج من الخليج الناصرى ويصب فى بركة الازبكية ، وقد اختفت القنطرة عند تطوير الأزبكية أيام الخديوى اسماعيل وكانت تقع عند التقاء شارع قنطرة الدكة مع شارع الجمهورية .

وقد قال المعمار فى قنطرة الدكة :

يا طالب الدكة نلت المنى ... وفزت فيها ببلوغ الوطر
قنطرة من فوقها دكة ... من تحتها تلقى خليج الذكر

يعرف يعوم عام ، وانت لا سكة ولا هندام ، وقد استراحت الناس من سكرك وعربدتك ، ومخلعتك ومشودتك ، وانا فضلى بين الانام ظاهر ، ولا يطلع عندى الا من يكون طاهر ، يصلى او يتركع ، ولا يتمخلع ولا يتمشكح ولا يتبرطع ، ولا يدخل لى الا من يكون حافى ، وقلبه من الكدر صافى ، وأنا طاهرة أسفل وفوق ، وعندى الاحتمال والذوق ، والناس ما كانوا يجوكى إلا وقت القطعة، ولا يكلموإ الارياء مع سمعة ، وموسمك كان فى آخر النيل شهر زمان ويندارو يهجروكى حتى يجى النيل كمان، والناس شبعوا منك لهم زمان نزقانين ، وما صدقوا رأونى جاءونى فرحانين ، ولا سيما لما كنتى محدوبة، وكانت سمتك مقلوبة ومن لا عمره شق هذه الاماكن شقها من اجلى ، وكل ذا من حشمتى وعقلى ، والخلق الذى كانوا يجوكى ما ييجو ربع الخلق الذى يجونى ، فلا تحسدينى على رزقى فإنك الآن دونى ، وأرضى قط ما هى أرضك ولا بلادك ، وأنا من أصغر أصغر أولادك ، ولو إن لك ألف سنة تعيشى فى الإسلام ، ما رأيتى ربع قيراط من هذه الأيام ، وما رأى لك أحد قط سماط ممدود ، ولا شمعة ولا قنديل « رؤى موقود، ولو لحق بك قيت السماقى، ماخلالك أثر باقى، ولا أحد » قدر يبات فيك ليلة ، وكل ذا فجور منك وما فى الأمور حيلة .

فعند ذلك تهيأت للجواب بركة الخزندار ، وأبدت لها غباراً قد ثار وكشفت عن سنط عروقه كالأوتاد وعن صير كل صيرة تجى درهم غدار ، ووجهها وجه غدار ، وعن ضفادع مذنّبة ، وأشكال مقلّبة ، وقد لعبت أمواجها وثار عجاجها ، وانخضت خضة هايلة ، فى تلك الشموس والقايلة ، وشكلها قد غدا مُكرب ، وقد خطفوا عمامتى بها فى وقت قبل المغرب ، ولا سلمت من القتل الإسلامة ، لولا إنى كنت أسبق

النعامة، وكم فى ذمتها من عمايم ، وكم لها من جرايم ، وقالت : قناطر الوز جارتى ، وصاحبتى وبنت حارتى ، وتعودت بى وتعوڈت بها ، ومن جاء صوبى جاء صوبها ، ونحن أصل هذا المكان، فلا تيجى تقلعى اسمنا من الديوان ، فما أحد له على الغيرة جلد ، ولو كان حداكى الف بلد ، والصلح يحصل بلادى بلادة ، ونحن تعرفك قبل ذى السعادة ، ونعرف أصلك وخصمك من قبل ان تعمرى ويظهر اسمك ، ومن قبل ان تعمل فيك المبيضين والمبلطين ، وحيطتك كأنها قفاعة طين ، وإذا تمقل الإنسان لكى بالنظر ، ما يرى فيك طوبة ولا حجر الا حيطتك كلها طينة ، وانت فقيرة ومسكينة ، ونعرف جماميزك وجميزهم الباط ، والنيل قد احاط بك احتياط ، وشكلك وهندامو ، وفقيرك واعلامو ، ورؤيتك تحزن القلوب ، وكل سنة يخافوا على حيطتك لا تذوب ، وانتى مهدومة وعاوزة البنيان، وما فيك يرى إنسان ، ولا يكون عندك إلا من يكون صياد أو غريب ماهو من ذى البلاد ، وكل صياد يجيكى عليه هدمة ، وهو داير على لقمة ، وتلك الجماميز عليها الغربان تنعق ، والبوم والحدادى تزعق ، فالإنسان بروحه ما يلحق، نسيتى صيادينك وهدمهم تعاتيرك وصدمهم لا يقدر احد يقعد فيك «نتفة، إلا تشوكة تلك الحلفة، ولالبابك سلالم تنفع، ويربطوا فيك» القرد يقطع ، وايمتا بقى لك ذى الصايح، يا بنت اليوم والبارح ؛ حاجتك تفرحى لذى السعادة ، وتكونى سامعة لنا ومنقادة ، ونحن مشايخ حاجتك توقرينا ، وبسّك توسى علينا وتزدرينا ، وأنا بركة الخزندار معروفة ، مليحة وموصوفة، وعلى جنبى قد أصبح غيط، ولا لى باب ولا حيط ، والناس تعرف سنطى وأثلى ، وساير البرك ما فيهم مثلى ، وأسماكى بلطى وبنى ، وكل ذا شغلى وفنى ، وعزى قد بان وفضلى كثير ، وليس لى فى الدنيا لمثلى نظير ، وقد صفا لى الوقت

وراق ، لا بركة الرطلى تشبهنى ولا بركة جناق [1] . وانت ما أحد ينازع فى ظرفك ولا كيسك ، لكن اخذنى الناس على كيسك ، وما راينا لاحد عندك بابة ، ولو جاءتك المنية وشبرا وانبابه [2] وانا ما مقصودى بينكم سوى الإصلاح ، وأروح موضعى لذيك الناح .

فعند ذلك أبدت الزاوية الحمرا عن شرح حالها ، وأعربت عن فصيح مقالها ، وقالت السلطان رسم بانشائى [3] كما هو مكتوب على حوضى فوق اموائى ، وأنت يا بركة الخزندار مقامك ما يقتضى التكليم ، لكن انت وقناطر الوز فى الترسيم [4] لأن كل واحد منكم بروحه غلطان ، وأغلقت شبابيك الربيع والخضرة ، وفتحت شبابيك الغيط والجرة ،

---

(١) بركة الرطلى يمثل موقعها الآن حى بركة الرطلى بالظاهر بالقاهرة وقد سبق التعريف بها أما بركة حناق فقال عنها المقريزى ، هذه البركة خارج باب الفتوح كانت بالقرب من من مطرة باب الفتوح، وكان ما حولها بساتين ، ولم يكن خارج باب الفتوح شيء من هذه الأبنية وانما كان هناك بساتين فكانت هذه البركة فيما بين الخليج الكبير وبستان بن صيرم ، فلما حكر بستان ابن صيرم وعمر مكانه الآدر وغيرها وعمر الناس خارج باب الفتوح عمر ما حول هذه البركة بالدور وسكنها الناس وهى إلى الآن عامرة ، انظر الخطط جـ ٢ ص ١٦٣ .

ويمثل موقع البركة الآن جزء من حى الحسينية شمال القاهرة فى منطقة يخترقها شارع الجيش فيما بيه وبين شارع الرعفرانى .

(٢) المنية المقصودة هى مية السيرج وهى إحدى أحياء شبرا الآن ، وهى بلدة قديمة لها أهميتها لوقوعها فى طريق الإسكندرية ، وسميت بهذا الاسم لأنه كان بها معاصر كثير للسمسم الدى يستحرج مه زيت الشيرج المعروف بالسيرج وهى تعرف أيضا بمنية الأمير ومية الأمراء لكثرة من سكن بها منهم فى العصر المملوكى وكانت آنذاك عامرة بدور السكنى والقصور وحامع وزوايا وحمامات وبساتين ومنتزهات وقد اتخدها الناس منزل قصف ودار لعب ولهو ومغنى صبابات وبها كان يعمل عيد الشهيد لقربها من ناحية شبرا ، وذكر المقريزى انه ادركها عامرة بكثرة المساكن والأسواق والمناظر وتقصد للنزهة بها أيام النيل والربيع لاسيما يومى الجمعة والأحد . انظر الخطط جـ ٢ ص ١٣٠ .

(٣) السلطان المقصود هو أبو النصر قايتباى .

(٤) الترسيم : العقوبة .

وأبدت ما عندها من اللطايف ، وأرسلت مطالعة كالبرق الخاطف ، بما حصل لها وما كان ، إلى حضرة مولانا جامع السلطان ، صاحب الروضة والرياض ، والقصور والبياض ، السيد الأمام ، صاحب البدرية والخيام(١) صاحب الأوراد والأذكار ، والبهجة والأنوار ، والألحان المطربة ، والأراضى المخصبة ، صاحب التهجد والقيام ، وفى ظلمة الليل والناس نيام ، وحوله عساكره المرتبة مثل المقياس والخروبية، وله المعزية ، والجامع الجديد فى مصر (٢) ، ايده الله تعالى بالنصر .

---

(١) الحامع المذكور المقصود به جامع قايتباى بجريرة الروضة (أثر رقم ٥١٩) وكان جديدا آنذاك وهو يقع بشارع جامع قايتباى بجزيرة الروضة ، وتاريخ انشائه من ٨٨٦ - ٨٩٦ هـ / ١٤٨١ - ١٤٩١م . وقد أشرف على عمارته البدرى حسن بن الطولونى .

* والمقصود بكلمة صاحب البدرية ان البدرى حسن بن الطولونى كان يصنع فى كل ليلة رابع عشر من كل شهر عربى ليلة حافلة بالجامع ويسمونها البدرية وينصب على شاطئ البحر قدام الجامع من الخيام مالا يحصى وتتجمع المراكب هناك حتى تسد النيل ويجتمع الجم العفير من العالم ويوقد بالجامع وقدة حافلة ويحضرها قراء البلد قاطبة والوعاظ وتكون ليلة حافلة لم يسمع بمثلها فيما تقدم واستمر بالجبال على ذلك مدة ثم بطل .

(٢) المقياس هو مقياس النيل بآخر حزيرة الروضة (أثر رقم ٧٩) والذى أمر ببنائه الخليفة المتوكل على الله سنة ٢٤٧ هـ / ٨٦٢ م .

* أما الخروبية فهى المدرسة الخروبية التى أنشأها كبير أسرة الخرارية بدر الدين محمد بن محمد الخروبى التاجر بعد سنة ٧٥٠ هـ / ١٣٤٩ م على ساحل مصر قبلى دار النحاس . وقد ذكر المرحوم « محمد رمزى » إن هذه المدرسة عرفت باسم جامع القبوة لأنه كان معلقا على قبو فى مدخل شارع القبوة الحالى بمصر القديمة ، وقد زال هذا الجامع ولم يبق من آثاره إلا أحد حائطى القبو على يمين الداخل فى شارع القبوة » (تعليق محمد رمزى على النجوم الزاهرة جـ ٥ ص ١٧٢) وأقول ان هذه البقايا قد زالت الآن وقد كانت موقعة برقم ٥٣٢ على خريطة القاهرة للآثار الإسلامية (لوحة ٢ مربع ١٣ أ) برأس شارع القبوة بمصر القديمة .

* والمعزية هى المدرسة المعزية التى أنشأها الملك المعز أيبك سنة ٦٥٤ هـ / ١٢٥٦ م ومحلها الآن جامع عابدى بك (أثر رقم ٥٢٤) المطل على شارع كورنيش النيل بمصر القديمة .

* والجامع الجديد هو الجامع الناصرى الجديد الذى أنشاه الملك الناصر محمد بن قلاوون سنة ٧١٢هـ وقد اندثر الآن وكان موقعه على النيل فى المنطقة التى يخترقها شارع السكر والليمون المتفرع من شارع كورنيش النيل بمصر القديمة .

فلما قرأ هذه الشكاية ، انتكى لذلك غاية النكاية ، وكتب مراسيم العز لهما بما فيه الكفاية : من حضرة صاحب الروضة الذى على البحار أشرف ، جامع السلطان وهو الأشرف .

أما بعد . فان البَرَّ بَرِّى، والبحر بحرى ، والمقياس مقياسى ، وما أحد قياسى ، ولى تأتـى الناس يطلبوا الوفاء كل سنة ، ولى كل يوم ما يعود مثله لسنة ، وكل الناس تدعو لى بدوام الأيام ، وتجاهى منشية نايب الشـام (١) ، ولى الحراقة والذهبية (٢) ورأس أتابكى جامع اليزبكية (٣) وأنا صاحب الأرض والبلاد، وحكمى على الاهرام الشداد ، ولى السبع وجوه والتـاج (٤) وزاوية المتبولى وبركة الحـاج (٥) ، وقد صفا لى الوقت

---

(١) مشية نائب الشام المقصود بها مشية المهرانى على النيل والتى يمثل موقعها اليوم منطقة قصر العينى وهى تمتد من ميدان فم الخليج حتى شارع الدكتور حندوسة ، وكان لمشية المهرانى أهمية كبيرة آنذاك فى العصر المملوكى لوقوع الاحتفال بكسر سد الخليج بها .

(٢) الحراقة سفينة حربية بها مرام تلقى النار على العدو ولها نحو مائة مجداف والمقصودة هنا نوع من السفن الخفيفة تستخدم فى العصر المملوكى فى النيل لحمل الأمراء ورجال الدولة فى الاستعراضات البحرية والحفلات الرسمية .

أما الذهبية فكانت مركبا كبيرا خاصا بالسلطان ، وكانت من شعائر المملكة ولا سيما يوم وفاء النيل، وكانت السلاطين تتوجه بها إلى المقياس ، وكان بها ستون مجدافا ، وقد أبطلها السلطان قايتباى ضمن أشياء أبطلها من شعائر المملكة فى زمنه إلا ان السلطان الغورى أعاد بناء واحدة أخرى تماثلها صنعت فى بولاق وزينت بالسناجق والاعلام ووضعت بها الطبول والنفوط .

(٣) الأتابك فى العصر المملوكى هو مقدم المماليك السلطانية وقائد الجيش أى وزير الدفاع بتعبير اليوم ، وجامع اليزبكية هو جامع الأمير أزبك الذى بناه بالأزبكية سنة ٨٨٩ هـ وكان موقعه بالقرب من مدخل شارع الأزهر وأزيل ضمن ما أزيل فى تنظيم ميدان العتبة الخضراء وفتح شارع محمد على .

(٤) التاج منظرة فاطمية كانت الخلفاء تنزلها للنزهة ، بناها الأفضل شاهنشاه بن أمير الجيوش بدر الجمالى ، وكانت محاطة هى وبقية المناظر الفاطمية بالبساتين العظيمة ويمثل موقعها الآن المنطقة التى يبدأ منها شارع ترعة الجلاد بالزاوية الحمرا . =

وراق بجيعانية بولاق (١) ، صاحبة البسطة المعظمة ، والشبابيك المخرمة ، وبها يحضر كل ظريف وداخل ، وهواها من كبد البحر الكبير داخل، والحسن كله فيها قد احتوى ، وهواها يوجد إذا عدم الهوى ، وقبوها كم أوى إليه شخص واستقال ، وأكثر فيه من القيل والقال ، من أهل سويقة العياطين، يكثر ذكر اخبار الملوك والسلاطين ؛ وما جرى فى الوجود للأنام، وبعد لحظة يضربه الهوى ينام، وتنام رفقته من حواليه ، ولا يبقى يعرف راسه من رجليه ، وحسنها فى الانام ماله مثيل ، وانها لتحكم على بولاق وجزيرة الفيل (٢) وانبابه وتلك الأقاليم ، وكم لها من الجوامك

= * أما الحمس وجوه فقد سماها الأفضل شاهنشاه أيضا وقد أعاد بناءها فى العصر المملوكى السلطان الملك المؤيد شيخ سنة ٨٢٣ هـ ، وقد سميت بهذا الاسم لأنها اقيمت على بئر متسعة كان لها خمسة أوجه من المحال الخشب التى تنقل الماء لسقى البستان حولها ، وقد اطلق عليها العامة فى العصر المملوكى السبع وجوه ربما تيمنا بالرقم سبعة الذى له اعتبار كبير فى التراث الشعبى ، ويمثل موقعها الآن المنطقة التى بها شارع الآلايلى بغمرة .

(٥) بركة الحاج تقع على بعد ٢٢ كم شمال القاهرة وكانت مساحتها فى العصر المملوكى نحو ٥٠٠٠ فدان وعبرتها ٣٠٠٠ دينار ، وكان لها اهمية كبيرة فى التاريخ بحكم موقعها الاستراتيجى الهام بصفتها أول وآخر محطة للذاهبين والعائدين بطريق الحج والتجارة للحجاز والشام وكذلك كانت متنزها كبيرا ومضمارا للرياضة والصيد حتى نهاية العصر العثمانى .

* وزاوية المتبولى أنشاها ودفن بقبتها العارف بالله سيدى إبراهيم بن على بن عمر المتبولى المتوفى فى ذى الحجة سنة ٨٧٧هـ /١٤٧٢ م ، وقد جددت الزاوية سنة ١٠٢٨ هـ / ١٦١٩ م وهى من اهم الآثار الموجودة ببركة الحاج للآن .

(١) جيعانية بولاق مدرسة لطيفة تنسب إلى يحيى بن شاكر بن عبد الغنى بن شاكر ، أبو زكريا شرف الدين ابن الجيعان (٨١٤ ـ ٨٨٥ هـ) كان مستوفى ديوان الجيش وهو صاحب كتاب التحفة السنية بأسماء البلاد المصرية .

(٢) جزيرة الفيل ظهرت للوجود فى زمن الدولة الأيوبية نتيجة غرق مركب كبير يسمى الفيل فى نهر النيل وترك فى مكانه فربا عليه الرمل وظلت تنمو تباعا ، وهى المعروفة الآن بجزيرة بدران بشبرا مصر بالقاهرة .

والمعاليم (١) وجامع البارزى (٢) عليها قط ما يزر ، وكم انشأ فيه صاحبه أشجارا وغرز ، والاستادارية (٣) مع هذه الحرمة العظيمة، وماشية معها على الطريقة المستقيمة ، واما الزرد كاشية (٤) فقط ما سمعنا لها غناشيه، وكم تحتها من فول وشعير ، وفيها يجلس المحتسب والوزير ، وجامع الخطيرى (٥) أيضا قط ما خطر بالبال ، ولا سمع له أحد قيل ولا قال ، وجامع تاج الدين منها قد اقترب ، وقد خدمه السعد بمجاورة تلك العمارة السعيدة وحوش العرب ، والروح فيه تنتعش غاية الانتعاش ، عند مشاهدة ذلك الخشخاش، ومدرسة ابن الزمن لما برزت عليها غاية البراز ،

---

(١) الجوامك والمعاليم هى الاجور أو المنح التى تعطى من ريع الوقف سواء أكان ذلك عينياً من ملابس وأغذية أو نقود .

(٢) جامع البارزى لم نعثر على نص بخصوصه ، ولكن كان لابن البارزى قصرا كبيرا ببولاق كان فى اصله لناصر الدين بن سلام فاستاجره منه ابن البارزى وأضاف عليه عدة بيوت مجاورة له وأتقن بناءها ووضعها وضعا غريبا على قاعدة عمائر بلده حماه ، وقد أعجب السلطان المؤيد شيخ بها إعجاباً شديداً وقضى بها أوقاتاً عديدة. انظر ابن حجر العسقلانى ، انباء الغمر جـ ٣ ص ١٩٦ .

* وابن البارزى هو ناصر الدين محمد بن محمد بن الفخر عثمان بن الكمال محمد بن عبد الرحيم بن عبيد الله بن المسلم البارزى (٧٦٩- ٨٤٣ هـ) برع فى الأدب دولى كتابة السر بالديار المصرية .

السيوطى ، حسن المحاضرة جـ ١ ص ٢٧٤ .

(٣) الاستادارية وظيفة يقوم عليها الأستادار وهو المسئول عن بيوت وخزانات السلطان وكان من ألصق الموظفين به فى إقامته ورحيله وأثناء سيره فى موكبه وغير ذلك من المهام وكان للاستادار ديوان خاص به يسمى ديوان الاستدارية أو ديوان المفرد . انظر : حسن الباشا ، الفنون الإسلامية والوظائف على الآثار العربية ، نشر مكتبة دار النهضة العربية ١٩٦٥ م ، جـ١ ٣٩ - ٥٩ .

(٤) الزرد كاشية معناها صنّاع الزرد أى الدروع .

(٥) جامع الخطيرى بناه لاول مرة الأمير عز الدين ايدمر الخطيرى فى بولاق سنة ٧٣٧ هـ وقد طغى عليه النيل عدة مرات فهدم وجدد عدة مرات ، ومازال الجامع موجودا ببناء جديد فى مكانه وهو يقع بأول شارع الخطيرى المتفرع من شارع ٢٦ يوليو (فؤاد سابقا) بالقرب من كوبرى أبو العلا

أوقفت أمرها حتى يجئ منشيها من الحجاز ، ومن عطف من شقة الدرب على جزيرة الفيل ، فقد سلك أحسن السلوك فلا يمتى إلا قليل ، ويطلع من شقة سيدى جلال الملوك ولا يمشى غير مدة لطيفة ، ويطلع من شقة الزاوية الحمرا وتلك الأماكن الشريفة ، لتعلم الزاوية الحمرا انها عندى من خاص الخواص ، ولا وزير يعدلها عندى ولا ناظر الخاص (١) وانها من أعز جماعتى فى ملكى ، وفيها مدفون سيدى على التركى ، وقد وليتها بهذا المكان ، حاكمة على جميع الخلجان ، وعلى جميع الأقطار والنواحى ، حتى الجسر والمسطاحى (٢) وفيها الدويدار (٣) واخوانها، وعمائرى الكل فى ديوانها ، معضودة بالنصر والتأييد ، قوية الشوكة ما على إيدها إيد ، ومن عارضتها شيطانة ومحتالة ، وتعرف تسد موضعها بالسقالة ، وما هى حلاسك ولا انت حلاسها (٤) فلا تعملى راسك براسها ، ايا قناطر الوز مقصودنا قيدان ايش له من المقدار والقيمة ، حتى تجاهينى به علينا ذى الجهاوات العظيمة ، لو قلت ذا القول

---

(١) ناظر الخاص هو المتحدث فيما هو خاص عمال السلطان من اقطاعه أو نصيبه من أموال الخراج وبلاد الجباية مما ليس من الأموال العامة

(٢) الجسر هو الجسر الذى يقع شمال بركة الرطلى ومكانه الآن شارع الظاهر والمسطاحى خط من خطط القاهرة يقع فى منطقة باب الشعرية الآن .

(٣) الدويدار واخوانها ربما المقصود بها قبة يشبك من مهدى الدويدار المعروفة بالقبة العداوية بشارع العباسية التى بناها بين سنتى ٨٨٤ - ٨٨٦ هـ / ١٤٧٩ - ١٤٨١ م (أثر رقم ٥) وهى مخصصة للنزهة هى واخواتها المقصود بها قبة قصر القبة الآن (أثر رقم ٤) وهى التى بناها سنتى ٨٨١ - ٨٨٢ هـ / ١٤٧٦ - ١٤٧٧ م ، وقبة معبد الرفاعى بالقرب من خانقاه فرج من برقوق بقرافة الغفير . (أثر رقم ١٠٨)

(٤) (حلِس) بالمكان ، وفيه - حلساً : لزمه و - بالشيء : أولع به فهو حَلِس وهى حَلِسةٌ . فهو أحلس ايضا .

في حياة قيدان قيدته وطردته ، عن ملكي وابعدته ، اذا كان مثل قصر نائب جدة[1] ، ماله سنين معتدة ، ماله وظيفة عندى مدى الشهر والدهر، إلا جندى بطال مشرف على البحر ، وما نعرف فرسانك الا الحفرة، بخيولهم العرج وسروجهم المكسرة ، ورماحهم المقصفة ، وعيونهم المنصفة ، وزنوطهم المقرعة ، وذقونهم المشرعة ولأحد منهم طلعه ، وعما يمهم كأنهم ودن زلعة ، وكل من عثروا فيه بطشوه ، ومهما لاح لهم لطشوه ، وعيونهم ممتدة لذى البر ، ويحرموا جمل يشتر ، وعملوا البياعين الجزر نقمة ، وكل من جاز يشرخوه في حزمه ، وكل شيء وجدوه طرقوه ، ومهما لاح لهم سرقوه ، وهم من حولك لا يبرحوا، الا بينك وبين بركة الخزندار يسرحوا ، ويوم ينشرحوا يعملوا البرجاس [2] ، آدى عزك وآدى فخرتك في الناس ، وهذا الكلام منك ما هو مصلحة ، لو كنت ما كنت انتى عتيقة مُلوحة ، ولا يقعد عندك إلا من تكون وزته مجنحة، فكم تحتك غريق من الغرقة ، ولا يجلس فيك إلا من تكون وزته متخنقة ، وانت يا بركة الخزندار قط ما انت شريفة ولا وضيعة ، وما فيكى الاصير وذريعة ، وصيركى قد أضحى ملوحة وجايف، ولا عندك شيء من اللطايف ، وعليكى حارس للصير غدا يحرس ، ودود سطك للأنام يقرص ، وانك حفرة من الحفر ، وكل من جاز يرجمك بحجر ، وما وظيفتك عندنا إلا لغسيل السفر ، ونصدق

---

(١) نائب حدة هو الأمير جانى بك الدوادار الذى شعل وظيفة نائب جدة قبل الدوادارية ، وقد أنشأ بستانا عظيما على النيل مساحته ١٥٠ فدانا يتوسطه القصر على البيل شمال القصر العينى بين ستى ٨٦٣هـ، ٨٦٧هـ.

(٢) البرجاس لعبة عبارة عن هدف ينصب على رمح أو سارية فى أعلاه كرة من ذهب أو فضة يرميها الفرسان وهم على الجياد .

عليكى وعلى صيركى اللباب والكسر ، ولخوفنا من أذاك ومن قلبك ، وضعنا لك حاجب على جنبك ، يحرمك تتنفس وترتاحى ، إلا يعطيكى فى جنبك بالمساحى ، وما رأينا لك شىء من المقدار ، إلا الصغار تشالق عليكى بالأحجار ، وكم استخبّا فيك حرامى تحت الكيمان ، ولا لك إسلام ولا إيمان ، وضمان صيرك اضحو بين الورى ابلال ، وكم طلبوا فيك بطبل لا محط له ولا استقبال ، واذا لم تعملوها نفس طيبة مثل القنطرة الجديدة (١) ، وإلا أرسلت لكم تجريدة ، ون كنتم متأسفين على زمان سلف ، فعلى الله الخلف .

فلما سمعوا هذا الكلام ما منهم إلا أطرق راسه ، وعلموا ان البحر الكبير ما هم قياسه ، وإنهم متى أبدوا معه شيئا من الخلاف ، غرقهم وأتلفهم إتلاف ، فأتوا فى باب الاعتذار ، ودخلوا فى مقام الذل والانكسار ، وقالت قناطر الوز : أنا جاريتك وبنت عبدك ، وإن بت أو أصبحت كنت عندك ، وانت الآن جامعة شملى وشمل أحبابى ، فليتنى لا أعدم فضلك يا أكبر أصحابى ، وقد حصل لى ببهجتك وأنسكٍ ، وأنا الآن تحت حسكّ ، وإذا داس أقل عبيدك على رقبتى كنت له أرضًا تطا ، وأنا قد وقع منى الخطا ، وقد أتيتك مستغفرا ، والماضى ما يعاد شغل الفقرا ، وبركة الخزندار خافت من مكالمتها الآن ، وارسلت تطلب الأمان .

فلما نظرت الزاوية الحمرا إلى قهرهم وغلبهم ، ووقوفهم تحتها وكسر قلبهم ، أحسنت إلى بركة الخزندار غاية الاحسان ، وجعلتها جارية الملك السلطان ، وصارت محمية الأسماك ، ولا يحكم عليها قصور ولا أملاك، وسعدت وزاد مالها ، وصار غيطها فرجة لكل من جاء لها ، وخلعت على قناطر الوز وولتّها ، وبمرور الإخوان عليها ألزمتها ، وتصافوا بعد الهجران والقطيعة ، وثبتت للزاوية الحمرا الدرجة الرفيعة .

تمت المفاخرة ولله الحمد فى الأولى وفى الآخرة والسلام . تم

---

(١) سبق التعريف بها .

المفاخرة الرابعة

مفاخرة الروضة ومصر القديمة

أولا : دراسة تاريخية لمصر القديمة وجزيرة الروضة

(أ) مصر القديمة :

طوال العصر الفاطمي (٣٥٨ ـ ٥٦٧ هـ / ٩٦٩ ـ ١١٧١ م) كانت الفسطاط هى مدينة مصر الرئيسية ومركز نشاطها الاقتصادى والصناعى والعلمى بينما كانت القاهرة هى مقر الحكومة الفاطمية ومركز الدولة الإدارى والسياسى والمعقل الرئيسى لنشر الدعوة الشيعية الإسماعيلية ، ويكوّن مجموع المدينتين (القاهرة والفسطاط) العاصمة المصرية فى العصر الفاطمى .

وقرب نهاية العصر الفاطمى اجتاح الفسطاط حريق متعمد فى سنة ٥٦٤ هـ / ١١٦٨ م بناء على أوامر الوزير شاور استمر أكثر من ٥٤ يوما وأتى على الفسطاط كلها ، وقد اضطر أهلها للفرار إلى القاهرة للاحتماء بها أولا وثانيا للدفاع عنها أمام هجوم عمورى الأول ملك بيت المقدس الذى اضطر لفك حصار القاهرة بعد أن نما الى علمه وصول جيوش نور الدين بقيادة شيركوه وابن اخيه صلاح الدين وتهديد ممتلكاته فى فلسطين ، وقد تمكن شيركوه بعد القضاء على شاور وتولية الوزارة للعاضد الفاطمى من إقناع أهل الفسطاط بالعودة إلى ديارهم ، وإعادة البناء قد تمت بصورة فعلية خلال عام ٥٧٢هـ / ١١٦٧ م وهو التاريخ الذى يجعله أبو صالح الأرمنى بداية إعادة إصلاح العديد من كنائس

الفسطاط كما ان ابن جبير الذى زار مصر بعد هذا التاريخ بنحو خمس سنوات يذكر أن أغلب المدينة كان قد استجد وقت زيارته وان البنيان بها متصل .

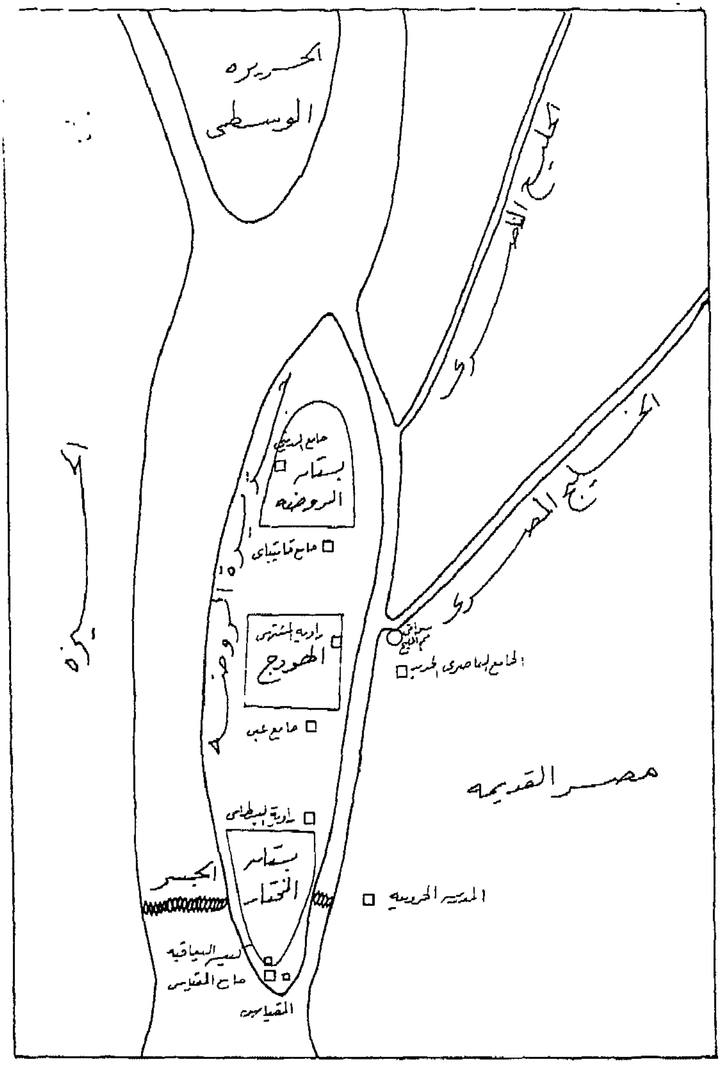
ورغم ان القاهرة قد فتحت أبوابها أمام الناس فى أعقاب استيلاء الأيوبيين على السلطة فقد ظلت الفسطاط رغم الأهوال والمصاعب التى مرت بها هى المدينة الأكثر اكتظاظًا بالسكان حيث عاد إلى الإقامة بها بسطاء الناس وعوامهم بينما استمرت القاهرة مقر سكن رجال البيت الايوبى وكبار رجال الدولة .

على أن التعمير بالفسطاط فى العصر الأيوبى كان فى جزءها الغربى فقط وإلى مسافة ما شرق جامع عمرو وزحف العمران على الجانب الغربى لجامع عمرو حيث استجدت أراضى جديدة نتيجة طرح النيل ، وبدأ الأمراء والتجار يبنون المدارس والجوامع على هذه الأرض ، ومنذ ذلك الوقت أخذ اسم الفسطاط يضمحل ويحل محله اسم مصر القديمة .

وفى نهاية العصر الأيوبى كان التعمير على أشده على طول شاطئ النيل بمصر القديمة حيث اانتقل مقر الحكم من قلعة الجبل إلى القلعة التى أقامها الملك الصالح نجم الدين أيوب فى جزيرة الروضة وانتقل اليها هو وخواصه وحرمه سنة ٦٣٨ هـ / ١٢٤١ م وقد جعل الملك الصالح بالقلعة ستين برجا وكون فرقة من المماليك نشَّأهم فى قلعة الروضة وهم الذين خلفوا الدولة الأيوبية باسم المماليك البحرية وقد بنى أمراء الملك الصالح بيوتا متجاورة على شاطئ النيل بمصر القديمة مواجهة لقلعة الروضة حتى يكونوا بالقرب من مقر الحكم ، واستمر التعمير قائما فى مصر القديمة طوال العصرين المملوكى والعثمانى ، وفى خطط المقريزى

ذكر للعديد من المنشآت الهامة التى كانت بها وفى المصادر والوثائق العثمانية العديد من الأحداث التى تتعلق بمصر القديمة وعن أهميتها كعاصمة قديمة ومكان إقامة عدد لا بأس به من سكان القاهرة آنذاك .

ومما يدل على تعمير مصر القديمة فى العصر المملوكى ما أورده المقريزى من عمائر أيوبية ومملوكية كانت تؤدى دورها بانتظام أيامه مثل المدارس الايوبية منها المدرس القمحية ومدرسة يازكوخ ومدرسة منازل العز ومدرسة العادل ومدرسة ابن الارسوفى والمدرسة الفائزية ومدرسة ابن زنبق ، ومن المدارس المملوكية ثلاث مدارس كبيرة لأسرة الخروبى ومدرسة المحلى والمدرسة الصاحبية البهائية والمدرسة المجدية الخليلية والمدرسة المسلمية ، والجوامع العظيمة الكبيرة مثل الجامع الناصرى الجديد وجامع ابن اللبان وغيرها كثير .



(شكل ٩) جزيرة الروضة موقع عليها أهم منتزهاتها وآثارها

(ب) جزيرة الروضة

كانت جزيرة الروضة عروس المتنزهات على مر تاريخ مصر الاسلامى وتنزه بها الخلفاء والملوك والسلاطين ورعاياهم واستعملت فترة كمقر للحكم ، وكانت طيبة المسكن وموطنا لأفراح الناس واحتفالاتهم وأعيادهم .

نشأتها وموقعها : جزيرة الروضة هى أقدم الجزر النيلية بحدود القاهرة وكانت موجودة قبل الفتح الاسلامى لمصر بخلاف الجزر الأخرى التى تكونت فى ظل الإسلام (١) وهى تقع فى القطاع الشرقى من مجرى النيل بين مصر القديمة والجيزة وكانت زمن الفتح تتوسط المجرى قبل ان ينحسر .

شكلها ومساحتها : وهى مستطيله الشكل وطرفاها مدببان ومساحتها(٢) ٣١٨ فدانا ويبلغ متوسط طول الجزيرة ٣٢٠٠ متر واقصى عرض لها ٦٠٠ متر اسماءها : وقد عرفت الجزيرة فى أول الإسلام باسم الجزيرة وبجزيرة مصر وبجزيرة بابليون وعرفت ايضا باسم جزيرة الصناعة عندما انشئت بهادار لصناعة السفن سنة ٥٤ هـ كما عرفت باسم جزيرة المقياس نسبة لمقياس النيل الذى بنى سنة ٩٧ هـ / ٧١٥ كما قيل لها جزيرة الحصن نسبة للحصن الذى اقامة بها أحمد بن طولون سنة ٢٦٣هـ/ ٨٧٦ م ، كما عرفت أيضا باسم جزيرة الفسطاط لمواجهتها للفسطاط وأخيرا عرفت باسم جزيرة الروضة نسبة للبستان الذى انشأه الوزير الفاطمى الأفضل شاهنشاه سنة ٤٩٠ هـ / ١٠٩٦ م شمال الجزيرة

---

(١) جومار ، وصف مدينة القاهرة ص ٣٣٣ ـ ٣٣٤ .

(٢) تقرير من ورارة الاشعال .

وقد سماه الروضة وعمت التسمية على الجزيرة كلها منذ ذلك الوقت وحتى الآن (١) .

التطور العمراني للجزيرة : صار للجزيرة دور هام منذ بداية الدولة الأموية وذلك لأن الوالى مسلمة بن مخلد الأنصارى أنشأ بها سنة ٥٤هـ/ ٦٧٤ م دار صناعة السفن البحرية الحربية والتجارية (٢) .

وكانت الجزيرة عامرة بالدور والقصور فى فترة حكم الوالى عبد العزيز بن مروان (٦٥ ـ ٨٥ هـ / ٦٨٥ ـ ٧٠٤ م) لذا عين لها والى يتولى الحكم بها ، وفى فترة خلافة سليمان بن عبد الملك (٩٦ ـ ٩٩ هـ / ٧١٥ ـ ٧١٧ م) بنى أسامة بن زيد التنوخى عامل الخراج بمصر مقياسا سنة ٩٧ هـ / ٧١٦ م ، ومن الأعمال التى خلدت الجزيرة بناء مقياس النيل الحالى بآخر جزيرة الروضة سنة ٢٤٧ هـ / ٨٦٢ م اثناء خلافة المتوكل على الله العباسى (٣) .

وعندما استقل أحمد بن طولون بحكم مصر وأسس دولة استمرت ٣٨ عاما (من ٢٥٤ ـ ٢٩٢ هـ / ٨٦٨ ـ ٩٠٥ م) وتوترت العلاقات بينه وبين الخلافة العباسية وتحرك القائد العباسى موسى بن بغا سنة ٢٦٣هـ/ ٨٧٧ م فى زمن الخليفة المعتمد على الله ليحل محل ابن طولون، لذا بنى ابن طولون حصنا منيعا بجزيرة الروضة على أنقاض وبقايا أبراج وأساسات الحصن الرومانى القديم ليكون معقلا له ولحريمه ولذخائره (٤) .

---

(١) محمد الششتاوى ، متنزهات القاهرة ص ٧٠ ـ ٧١ .

(٢) ابن دقماق ، الانتصار ص ١٠٩ ، المقريزى ، الخطط جـ ٢ ١٧٨ .

(٣) المقريزى ، الخطط جـ ١ ص ٥٨ .

(٤) المقريزى ، الخطط جـ ٢ ص ١٨٠ ، القلقشندى ، صبح الأعشى جـ ٣ ص ٣٩ .

واستقل محمد بن طغج الإخشيد بحكم مصر وأسس أسرة استمرت ٣٤ عاما (من ٣٢٣ - ٣٥٨ هـ / ٩٣٥ - ٩٦٩ م) وفى سنة ٣٢٥ هـ نقل دار الصناعة من مكانها بالجزيرة إلى ساحل الفسطاط وانشأ مكانها قصراً وبستانا سماه المختار أثنى عليهما المؤرخ المسعودى كشاهد عيان فى حديثه عن الاحتفال بليلة الغطاس أيام الاخشيد فى سنة ٣٣٠ هـ / ٩٤٢ م وصار الاخشيد يفاخر ببستانه وقصره هذا أهل العراق [١] .

وقد تمتعت الجزيرة أيام الدولة الفاطمية بأهمية كبيرة واعتبرت مدينة مستقلة وكان يقال « القاهرة ومصر والجزيرة » ،وفى فترة خلافة الحاكم بأمر الله (٣٨٦ - ٤١١ هـ / ٩٩٦ - ١٠٢٠ هـ) عمر الأمير غبن جامعا بخطبة وهو أول المساجد الجامعة بالروضة وقد كثرت العمائر حوله [٢] ، ومحل هذا الجامع الآن زاوية صغيرة بشارع محمد ذو الفقار تعرف باسم جامع الاباريقى . وفى سنة ٤٨٥ هـ / ١٠٩٢ م بنى الوزير بدر الجمالى جامعا مجاوراً للمقياس بعد ترميمه له [٣] وقد حل محله الآن قصر المناسترلى .

وفى سنة ٤٨٨ هـ / ١٠٩٥ م أنشأ شاهنشاه بن أمير الجيوش بدر الجمال بستانا شمال الجزيرة وهو الروضة الذى تسمت الجزيرة باسمه [٤] وانشأ الخليفة الآمربأحكام الله (٤٩٥- ٥٢٤ هـ / ١١٠١ - ١١٢٩ م) متنزها بجوار بستان المختار سماه الهودج لزوجته البدوية لأنها صعب

(١) المقريزى ، الخطط حـ ١، ص ١٨١ .

(٢) محمد الششتاوى ، متنزهات القاهرة ص ٧٩ .

(٣) نفسه ص ٨٠ - ٨١ .

(٤) السيوطى ، كوكب الروضة ورقة ٢٧ .

عليها مفارقة ، ما اعتادت وأحبت ان تسرح طرفها فى الفضاء ولا ينقبض قلبها تحت حيطان المدينة فبنى لها الهودج فى شكل غريب [1] ، ومكانه الآن المنطقة المواجهة لكوبرى الملك الصالح ، وكان للفاطميين منظرتين هامتين للنزهة تسمى احداهما المشتهى والأخرى المنتهى أشاد بهما الشعراء كثيرا .

ومن أهم ما عمر فى جزيرة الروضة زمن الدولة الأيوبية (٥٦٧ ـ ٦٤٨ هـ / ١١٧١ ـ ١٢٥٠ م) القلعة التى بناها الصالح نجم الدين أيوب لتكون قصر ومقر الحكم وحصنا له ولمماليكه الذين استجدهم وعرفوا باسم المماليك البحرية ومكان هذه القلعة الآن يمثله المنطقة الممتدة من زاوية البسطامى حتى نهاية الجزيرة [2] .

وقد حظيت جزيرة الروضة فى عصر سلاطين المماليك بعناية فائقة لأنها عمرت بالمناظر والجواسق والقصور للأمراء وزرعت بالبساتين المثمرة وغرست بالأزهار واقيمت بها احتفالات ومهرجات بحرية حولها غاية فى الروعة واعتنى ببناء الاساطيل الحربية بها واحتفل السلاطين بها احتفالات كبيرة وقد ذكر ابن دقماق المتوفى سنة ٨٠٩هـ / ١٤٠٦ م انه كان يوجد بالروضة نحو العشرين مسجدا وقد خربت القلعة وعادت الجزيرة كما كانت من قبل متنزهات وقصور وبساتين وجوامع وحمامات [3] .

ومن الجوامع التى بنيت أيام السلطان حسام الدين لاجين ولايزال

---

(١) المقريزى ، الخطط جـ ٢ ص ١٨٢ . ، ابن اياس ، بدائع الزهور جـ ١ ق ١ ص ٢٧١ .

(٢) انظر بالتفصيل . محمد الششتاوى ، متنزهات القاهرة ص ٨٧ ـ ٩٢ .

(٣) الانتصار ص ١١٦ .

مجددا في مكانه للآن جامع البسطامى ، ومن الجوامع العظيمة التى بنيت فى سلطنة الناصر محمد بن قلاوون جامع الفخر الذى بناه القاضى الفخر ناظر الجيش سنة ٧٣٠ هـ وقد جدده شمس الدين المقسى سنة ٧٧٨هـ(١) ثم هدمه وأقام بدله من جديد السلطان قايتباى واستغرق بناؤه عشر سنوات من ٨٨٦ ـ ٨٩٦ هـ وهو لا يزال عامرا بذكر الله للآن . وقد أنشأ السلطان الغورى سنة ٩١٧ هـ / ١٥١١ م قصراً على بسطة المقياس ومقعداً مطلا على النيل قضى الغورى به أوقاتاً كثيرة . وكان يوجد شمال الجزيرة قرية تسمى منيل المماليك .

وفى العصر العثمانى ظلت الجزيرة متنزها جليلا حافلة بالبساتين والقصور مثلما اخبرنا الرحاله النابلسى (٢) .

وبدراسة خريطة الحملة الفرنسية نجد بالروضة بعض التجمعات البنائية الصغيرة تتمثل فى كفر عبد العزيز شمال غرب الجزيرة وكفر قايتباى حول الجامع وكذلك تجمع بنائى مجاور للمقياس ، بالاضافة لبعض القصور والجوامع المتفرقة بها ، وباقى الجزيرة مزروعة بالحقول والبساتين .

وقد انشئت فى عصر اسرة محمد على قصور فخمة وعند منتصف هذا القرن تحولت الجزيرة كلها للبناء . وكان للجزيرة جسرين أولهما يصل بين مصر القديمة والجزيرة كان موقعة مواجهاً لشارع القبوة بمصر القديمة والثانى مواجهاً له بين الجزيرة والجيزة . ولكن هذين الجسرين كان يتعرضان كثيرا للتفكك والتلف .

---

(١) ابن دقماق ، الانتصار جـ ٤ ص ١١٦ . ، الخطط جـ ٢ ص ٣١١ .

(٢) الحقيقة والحاز ص ٢٣٦ ، ٢٥٦ .

ثانيا :التحقيق والتقييم

هذه المفاخرة وردت فى كتاب كوكب الروضة للسيوطى وقد حققت نصها أثناء تحقيقى له ، وقدمت هنا النص الصحيح .

وهى للأديب المملوكى الشريف صلاح الدين محمد بن أبى بكر الأسيوطى .

وهى مكتوبة باللغة العربية الفصحى السلسة فجاءت عباراتها سهلة رقيقة وألفاظها معبرة وقد أورد بها الكاتب بعض الاشعار بما يخدم المفاخرة .

وعن أهمية المفاخرة إنها تبين لنا استمرار مصر القديمة كمدينة كبيرة عامرة بالناس والعمران بعكس ما هو معروف عنها من تردًّى أوضاعها فى العصر المملوكى .

وهى تبين لنا كذلك أهمية الروضة كمتنزه كبير ومكان للاحتفال القومى العظيم وهو الاحتفال بوفاء النيل وتخليق المقياس .

ثالثا : النص

مفاخرة بين الروضة ومصر

انشاء الشريف صلاح الدين محمد بن أبى بكر الاسيوطى رحمه الله تعالى

قال : يقبل الأرض وينهى أنه ليس يخفى عن العلوم الكريمة ، والألباب الكاملة السليمة ،ان النفس والروح للإسترواح ، أشد طلبا من راحتها بالراح ، وان المملوك قصد مصر لهذا فى بعض الأيام ، وتنقل الى الروضة متنزها من غير آثام ، ، فملأ العين بما لهما من المحاسن ، وبما خصتا به وبذاك الماء العذب القراح الذى هو غير آسن ، ورأى أن كلا منهما بمعان تفردت ، وبأوصاف غير ما شملها من الإطلاق دون الاخرى قيدت ، فاستنطق لسان حالهما ، مفصحا عن أمرهما .

فقالت مصر : بسم الله تبركا لفظا ومعنى . أنا القديمة مبنى . والذى إذا عدت أوصاف غيرى من البلدان فرادى جاءت محاسنى مثنى مثنى . لى سمعة فى الجاهلية والإسلام . وإذا حل فىّ حالٍ دخل دار الأمن بسلام . وشبه بعض السلف خلق الدنيا بالطير وإنى الصدر . وحسبك هذا التشبيه رفعة فى القدر . فخرى على البلاد كفخر العلماء على العباد

وذكرى فى كل ناد بين حاضر وباد . أنا نزهة النفوس . ومطلع البدور والشموس . وإذا بدا زمن الربيع فترانى كالعروس . وحبذا بساتينى المفننة بكل عصر طائل . ونيلى الجارى كالسكر المذاب للنائل . وأحسن بقول القائل (١) .

أرض مصر فتلك أرض   من كل فن لها فنون
ونيلها العذب فذاك بحر   ما نظرت مثله العيون

فقالت الروضة :الحمد لله على هذه المسرة . ثم الحمد لله الذى أظهر محاسنى بشهادة الضُّرَّة . وأقر كل لسان ممن رآنى بأنى لإنشراح القلوب مقرة. أنا للجموع رائضة . وبأنواع الفرح والخير فائضة : ولموج الحرث الذى مثل الجبال غائضة . أزهارى بطيبها تفوح . وبألوانها المعجبة تتبهرج وتلوح . وأغصانى تتمايل مما تلحن حمائمها وتنوح . نعم أنا الجزيرة المستجدة . وناهيك بالحسن الجديد إذا فاخر ضد ضده . أنا العروس بالتحقيق فى زمن الربيع . أنا زهرى الباسم الناسم وتلوينه البديع. أنا لساكنى من الوشاة والرقباء والأعادى لا سيما فى أيام النيل حصن منيع . ولله در القائل

زر الجزيرة وقت النيل فى السحر   واغنم بها لذة الآصال والبكر
فللجزيرة بالنيل المقيم بها   غنى عن المطر الجانى على الجدر
يا جندا هى والبحر المقيم بها   كأنها هالة دار على القمر
وجندا صفة المقياس بارزة   كمثل ردف له بالماء مؤتزر
وجندا الروضة الغناء كم شبه   فيها تقوم إلى جبرى على قدر

---

(١) هو الشاعر المملوكى ابن الصائغ الحنفى .

فقالت مصر للروضة : الآن حصحص الحق ببيانه . وظهر بعد كتمانه أسات بهذه المقابلة . وكيف لك بالمطاولة . أنا فضلى مذكور . وصيتى غير منكور . ودليلى القاطع كالسيف عند أهل العلم مشهور . ذكرت فى أربعة وعشرين موضعا من التنزيل . منها أربعة صريحة وباقيها بتأويل(١) . ووردت الأخبار بسندها فىّ بصحة الأقاويل . شهد الإجماع بفضلى . ولى الآثار الجميلة والجامع العتيق كعبة للمصلى (٢) وأنا مأوى النزيل من أبناء السبيل والعالم والصالح والمتولى . وكم للنزهة والتعبد عندى من زاوية . وكم فقير بالبحر وراوية . لطفت أبنائى فوصفوا بالرقة والصفا . وتمازجوا بحلاوتهم حب الوفا . فقيل عنهم ما ليس فيه خفا .

حبذا الفسطاط من والدة ... جنبت أولادها در الجفا

يأتى النيل إليها كدرا ... فإذا مازج أهليها صفا

فقالت الروضة : تبرهن البرهان . وبان البيان . قال الله عز وجل « فى روضة يحبرون » (٣) وقال تعالى « فى روضات الجنات لهم ما

---

(١) الأربع مرات التى ورد فيها ذكر مصر فى القرآن الكريم صراحة هى ﴿ وأوحينا إلى موسى وأخيه أن تبوءا لقومكما بمصر بيوتا ﴾ سورة يونس آية ٨١ ، وقوله تعالى ﴿ وقال الذى اشتراه من مصر لامرأته أكرمى مثواه ﴾ سورة يوسف الآية ٢١ . ، وقوله تعالى عن فرعون ﴿ أليس لى ملك مصر وهذه الأنهار تجرى من تحتى ﴾ سورة الزخرف الآية ٥١ ، وقوله تعالى ﴿ ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين ﴾ سورة يوسف الآية ٩٩ .

وعن ذكر مصر بالتأويل انظر :-

السيوطى ، حسن المحاظرة جـ ١ ص ٦ - ٩ .

أحمد صبحى منصور ، مصر فى القرآن الكريم ، كتاب اليوم العدد ٣٠٦ .

(٢) الجامع العتيق هو جامع عمرو بن العاص بمصر القديمة .

(٣) سورة .

يـشـاؤون » [١] وحسبى بهذا دليلا إذا أكثر المكثرون . وإن لم أكن تلك فى المعنى والعيان . ففيه تشبيه لى بأحسن الجنان . وهو من أقوى الدلائل على تفخم الشان . فإن شهد بفضلك الإجماع فأنا كذلك وأزيد عليك بالقياس . وعرفت على الحقيقة بالوفا دونك بلا إلباس . واشتهر افتخارى بالستر يوم الزينة [٢] على العاصى وغيره بين الناس . وان كان لك جامع فلى الزيادة . وآثار جميلة فكم لى بالأصابع زيادة . أياد أنا بها عيد وهى عادة . وطالما سعى سلطانك الىّ بملابسك الفاخرة وصالحك بسجادة ، وان كان لك فخر بالبحر والزاوية . فإن لى فخرين . بأننى روضة الطالبين ومجمع البحرين . وأنت مأوى الفعلة والبيعة والسوقة . والمذممة بأهل الذمة والكنائس والحانات والخانات المطروقة . وأنا للكبراء والوزراء والملوك وأهل الطريقة . أتملى بلقاء البدر عند طلوعه وما تفوزى بنظرة منه الإعند الغروب . وأين إقبال الحبيب من إعراض المحبوب . وأحظى بالشمس بكرة الندا وتصلين بها من الهجير إلى استحكام الغيوب . والعجب منك كم لك طاقة . ولا لك على هذا طاقة . وأعجب منه تقابلين طلاوتى بالحراقة [٣] . وتلك النشافات عند الزلاقة . فإن وصفت

---

(١) شورة الشورى آية ٢٢ .

(٢) يوم الزينة المقصود به يوم الاحتفال بوفاء النيل وتخليق مقياس النيل بالروضة وكسر سد الخليج ، وكان علامة الوفاء هو وصول الماء إلى ١٦ ذراعاً بأذرع عمود المقياس فحينئذ يسدل ابن أبى الرداد القائم على أمر القياس ستارا على الشباك المقابل لمصر الفسطاط فيحتفل الناس حينئذ بالوفاء ويتم فى اليوم التالى المهرجان الرسمى ويقال ان يوم الوفاء هو اليوم الذى وعد فرعون موسى عليه السلام - بالاجتماع فى قوله تعالى ﴿ قال موعدكم يوم الزينة وأن يحشر الناس ضحى ﴾ .

(٣) الحراقة هى المركب التى كان يستخدمها السلطان أو من ينوب عنه فى الاحتفال لتخليق المقياس وكسر سد الخليج .

ظراوتى فى حـ .

لك أيها المصر محاسن فليست إلا فى جنب أوصافى . وتأملى فما لبساتينك أغصان خلافى . وكأنما ناظرت الشام بزهراتى وفاضلتها بها . حتى كادت الجبهة تسجد لى باذن ربها . فحبذا منازل منى نفح الشمال فيها شمول . لابل الرياح الأربع على وجهها قبول . أصبح كل غصن من رياضى يميس . وهو بنعمى الظل مقلدا . والنسيم يمشى على ذلك الروض مقيدا . والماء يتجعد تجعيد المبرد فلا عجب أن يجلو عن القلب الصدا . ذات بحرين تعاضدا على رفع الهموم الخافية . ومدحت بما يعاب سواى به من مخامرة النسين الواشى ومخالطة العين الصافية . قد مرج الله تعالى فىَّ « البحرين يلتقيان . وأخرج فى أعطاف الغصون من زهراتى اللؤلؤ والمرجان . .

ذات وجهين فيهما خيم الجسر .. فأضحت بها القلوب تهيم

ذا يلى مصر فهو مصر وهذا .. يتولى وسيم فهو وسيم . .

فبلج البحار يسبح نون .. ويفج القفار يسنح ريم .

قد أعادت عصر التصابى صباها .. وأبادت فيها الغيوم الغموم .

فقالت مصر : أنا مدينة الكسب والمعاش . وللمقيم بى إقامة حال ما عاش . ومعدن المَتَاجر والمُتْاجر وذوى الرياش . أنا مستودع نفائس الأموال . وحواصل الأقوات والغلال . فساكنى بجمع بين نعيمى الدنيا والآخرة عاجلا وفى المآل . وفى كل ربع من رباعى للأحبة مربع . ومخلص للمضطر فى بيوتى عند كل مطلع . وفى كل ناحية منى للمتنزه مرتع . يكاد نهر المجرة يجرى بين يدى رباى وحماى . والمشترى أن يبتاع ببرجه أدنى درجة من سناى . فأنا على السعد ممدودة الرواق . منظومة

النطاق . تعوذ قاعاتي بالسبع الطباق . وكم من ذي ريم (١) . عند البساتين والبريم (٢) ولا تنس العاشق والمعشوق (٣) والرصد . (٤) وبركة الجبش(٥) التي لا ينكر حسنها احد . وفي المعنى

بها ما تلذ العين من حسن منظر وما ترضيه النفس من شهواتها
زمردة خضراء قد زين قرطها بلؤلؤة بيضاء من زهراتها

أنت إلى الهرم قريبة . وفريدة غريبة . وعدمت القوس (٦) ففقد

---

(١) ريم : غزال .

(٢) البساتين كانت قرية قديمة تعرف ببساتين الوزير ، وقد نسبت إلى عدة وزراء فقد ذكر ابن دقماق في كتابه الانتصار جـ ٤ ص ٥٧ أنها نسبت إما يعقوب بن كلس وزير الخليفة الفاطمي العزيز بالله أو الوزير المادرائي أو الوزير ابن الفرات وزير كافور الاخشيدي وهي سبع بساتين أما المقريزي في الخطط جـ ٢ ص ١٥٧ فينسبها إلى الوزير المغربي وزير الخليفة المستنصر وذكرانها تقع قبلي بركة الحبش وفيها مساكن وبساتين كثيرة وبها جامع تقام فيه الجمعة ، وأقول ان القرية القديمة لا تزال واقعة على تل مرتفع يتوسط الآن حي البساتين جنوبي القاهرة .

والبريم متنزه على النيل في المنطقة المحيطة الآن بجامع أثر النبي بالقاهرة .

(٣) المعشوق هو بستان كبير كان مزروعا بالأشجار جنوبي الفسطاط من جملة خطة راشدة وظل عامرا حتى العصر المملوكي ويمثل مكانه الآن منطقة الزهراء بحي مصر القديمة بالقاهرة .

(٤) الرصد هضبة مرتفعة كانت مطلة على بركة الحبش وقد استخدمت في العصر الفاطمي لرصد الكواكب والنجوم ، ويمثل مكانها الآن المنطقة المعروفة باسطبل عنتر .

(٥) بركة الحبش كانت بركة كبيرة تمتلئ بالماء في أيام فيضان النيل عن طريق خليج بني وائل وفي فصل الشتاء كانت تزرع بمحاصيل شتوية ؛ وكانت من متنزهات القاهرة الهامة حتى نهاية العصر المملوكي ، وكانت البركة تعتبر من أعمال مصر من جانبها القبلي أى تتبع فسطاط مصر من الناحية الإدارية حتى نهاية العصر العثماني .

ويمثل مساحتها الآن منطقة تقدر بحوالي ٢٢٠٠ فدان تتوسط المسافة بين البساتين ودار السلام حاليا . وعنها بالتفصيل انظر . محمد الششتاوي ، متنزهات القاهرة ص ١٢٤ - ١٣٢

(٦) القوس هو عقد تبقى من القلعة التي بناها الصالح نجم الدين أيوب جنوبي جزيرة الروضة وكان يقع غربي القلعة ادركه المقريزي سنة ٨٢٠ هـ / ١٤١٧ م ، وكانت العامة تتنزه عنده وفيه يقول الشاعر النواجي :

مصر قالت دمشق لا تفتخر قط باسمها
لو رأت قوس روضتي منه راحت بسهمها

المشترى منك نصيبه . توقعين السالك فى التعدى أو الغرق والتردى . أو الخوض مع الخائضين ، فدونك مهالك قبل وصوله للمطالب مع الرائضين. وما ثم مانع . يقتضى عدم الفرق بيننا إذ لا جامع .

فقالت الروضة : إن كان لك غلال فكم بك من مغلول . وعلىّ تنفق الأموال وتروح الأرواح فلك الحاصل ولى المحصول . وأنا من الهرم بعيدة . وقد أقررت فى هذه المعاباه بأنى طارية المنشأ فى الحسن جديدة . والنظارة تشهد أينا ترملت .

وبالخرائب والكيمان تكونت ، نواحيك للنواح ، لأجساد بالقبور بغير أرواح. كم سبح سابح إلىّ أسرع من البرق . وقيم قطع بينى وبينك بالفرق . وكم ملك أراد الوصلة بيننا بجسر فما تجاسر . وأقدم طامعا فباء بالحسرة إذ انعكس أمره وتعاسر . وما بلغ أحد لك فىّ مناه. ولكن تصديت للجناية علىّ ونسيت ما يجنى لك من فانا على كل حال مخصوصة بالجناه . إذا صفر منزل من منازلك فعندى آس وربيع . وإذا أتى جماد منك إلىَّ عجب من حسنى البديع . مما بين سقاة جوار جلوس. وساق جوارى تذهب البؤس. وأدنى بقاعى هو المشتهى (١) وتناهيت فكان لى المنتهى (٢). أفتح من قبض عليه الهم جامعا للمسرة وبسطة ويكرمه

---

(١) المشتهى عبارة عن منظرة (قصر للنزهة) ترجع للعصر الفاطمى بنيت قبل سنة ٤١٥ هـ / ١٠٢٤م وكان الخلفاء الفاطميون يتنزهون بها ، وحل محلها فى العصر المملوكى رباط يسمى رباط المشتهى ثم دفن به أحد اعلام الصوفية فى العصر المملوكى وهو الشيخ الكاررونى المتوفى سنة ٧٧٤ هـ / ١٣٧٣ م فعرف الرباط منذ ذلك الوقت باسم زاوية الكازونى ، وقد اريلت تلك الزاوية فى الاربعينات من هذا القرن لإنفاذ شارع جامع قايتباى وكان موضعها فى نهاية شارع عده بدران المتفرع من شارع المنيل بالقرب من محطة اتوبيس الباشا حاليا .

(٢) المنتهى كانت إحدى المناظر الفاطمية بجزيرة الروضة لم يدكر المؤرخون تاريخها ولا مكانها بالجزيرة، وقد حولت إلى راوية فى العصر المملوكى .

ربيعى الزاهى إذا انطوى بأكدار الزمن فيفرش له بسطه . ونشرى أينما سار نفح مثل نور الغزالة (١) حيثما لاسنح . وأنا الروضة الحسنة الانبساط ، وحلى أزهارى البهجة اقراط والحالّ بى كأنما حل بدار السلام. أعنى الجنة . واتخذنى ملجأ فكدت أن أكون من طوارق الأيام جُنَّة . كيف أخذت على التعدى علىّ فى المناظرة . وعبت ما هو لى ولك محاسن بالمغايرة . وذاك هو النعمى الذى هو لنا بمنزلة الوسن من الجفون . وتقربها الأعين كما تقربها العيون . وهو النيل الذى إذا أتى راق منظره . وشاقت من أمواجه وداراته أعْكانه وسرره . وسقى مدة الأرض سقى الرحيق . وفاض منه كل خليج يصل الأمن وإن كان يقطع الطريق . وأصبح أنا بمقياس فى الحسن غاية وكرسى جسرى (٢) له فى كل وصف آية . لئن كنت أنت الأس وأنا الزائدة . فأنا من عندى تعرف القاعدة . وما لنا نتقاذف ونحتال للسباب بحبائل الشرك . ونأبى إلا الإقلاع بما لنا فى السمعة من المعنى المشترك. وإليه عاضد هذا الشاهد

لعمرك ما مصر بمصر وإنما   هى الجنة العليا لمن يتفكر
فأولادها الولدان والحور أهلها   وروضتها الفردوس والنيل كوثر (٣)

---

(١) الغزالة هى الشمس .

(٢) كرسى الجسر هو رأس الجسر الذى كان يصل ساحل مصر بجزيرة الروضة وكان كرسى الجسر يقع أمام المدرسة الحروبية التى بناها بدر الدين الخروبى التاجر سنة ٧٥٠ هـ / ١٣٤٩ م على ساحل مصر قبلى خط دار النحاس ، وقد زالت تلك المدرسة الآن وكانت بقاياها موجودة وموقعة على خرطة القاهرة للآثار الإسلامية برقم ٥٣٢ لوحة ٢ مربع ١٣ أ برأس شارع القبوة بمصر القديمة .ولكن تلك البقايا زالت عند شق شارع كورنيش النيل بمصر القديمة وكان كرسى الجسر يقع على النيل مواجها لشارع القبوة .

(٣) هذان البيتان للشاعر ناصر الدين العيذراوى ، وقد ذكر بصيغة أخرى هى

لعمرك ما مصر بمصر وإنما   هى جنة الدنيا لمن يتبصر
فأولادها الولدان والحور عينها   وروضتها المقياس والنيل كوثر

فقالت مصر : هيهات هيهات . وانشدت هذه الأبيات

مصــر لهـا صــورة ومعنـــى وذكرهــا فـى الــورى يسيـــر
وكــل نعــت يقــال عنهـــا فى جنب اوصافهـــا يسيـــر

فلما أبت مصر الانصاف ، واتصفت بهذه الأوصاف . انثنت الروضة واسترجعت . وحمت حماما وتمنعت . وطلبت النصر بحلول ركاب يحكم بعدل بينهما إذا حكم . انتهى والله تعالى أعلم .

الفهـــرس